



حضارة

مجلة فصلية معنية بالشأن العراقي تصدر عن مركز الأمة للدراسات والتطوير

العدد الثالث رجب ١٤٢٠هـ / تموز ٢٠٠٩م

رئيس التحرير

أحمد الفياض

نائب رئيس التحرير

حامد الغزرجي

مدير التحرير

حسين الرشيد

مستشارو التحرير

عبد المنعم جمعة

د. حاتم المفرجي

د. عمار عبد الكريم

المحررون

محمود مهدي

يوسف الكاتب

الإخراج الفني

سيف الجبوري

Mobile: 009647810801021

نقال: ٠٠٩٦٤٧٨١٠٨٠١٠٢١

Mobile: 0020174876011

نقال: ٠٠٢٠١٧٤٨٧٦٠١١

Telefax: 0020237619596

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٧٦١٩٥٩٦

البريد الإلكتروني

editor@hadharamagazine.net

الآراء الواردة في البحوث والمقالات المنشورة تعبر عن آراء كاتبها

ضوابط النشر في المجلة

- (١) أن تراعي البحوث والدراسات والمقالات المراد نشرها في المجلة الالتزام بالأهداف العامة لمركز الأمة للدراسات والتطوير.
- (٢) الالتزام بالمنهج العلمي الأكاديمي في توثيق البحوث والدراسات والمقالات المنشورة توثيقاً علمياً، وذلك بإيراد المصادر والمراجع وفق معلومات النشر المتعارف عليها.
- (٣) ألا تكون المواد المرسلة للنشر في المجلة قد نشرت أو أرسلت للنشر في مكان آخر.
- (٤) إرسال نصوص البحوث والدراسات والمقالات وغيرها بواسطة البريد الإلكتروني إلى مدير تحرير المجلة وعلى عنوانها البريدي المعلن على صفحات المجلة.
- (٥) أن لا يزيد حجم الدراسة أو البحث عن خمسة عشر صفحة (A4) كحد أقصى، وأن لا يقل عن عشر صفحات، وأن لا يزيد حجم المقالة عن خمس صفحات ولا يقل عن ثلاثة.
- (٦) تنشر المجلة تقارير تغطية المؤتمرات والندوات والحلقات النقاشية ومراجعات الكتب، على أن لا يزيد حجم التقرير عن صفحتين (A4) ولا يقل عن صفحة واحدة، وأن يلتزم كاتبه بإيراد أهم المعلومات.
- (٧) لا تدفع المجلة أية مكافآت نقدية عن البحوث والدراسات المنشورة فيها، وتعتمد على تعاون الباحثين والدارسين من أجل تأدية رسالتها في خدمة الأهداف التي أسست من أجلها.

في هذا العدد

٥

الافتتاحية

٧ أبحاث ودراسات

- ٩ الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال - د.عبد الكريم العلوجي
- ٣١ حوار الأديان... ضرورة ولكن! - د.وصال العزاوي
- ٤٣ قراءة في القضية العراقية المعاصرة - د.أحمد الجنابي
- ٥٧ ثقافة المقاومة عند الشعب العراقي - خالد القيسي
- ٧٧ تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية - عبد الستار أحمد

٧ مقالات

- ١٠٩ العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب - محمد جمال عرفة
- ١١٩ جيش الاحتلال بين الفرار والانتحار - حسين الرشيد
- ١٣٩ الاتجاهات الشعرية بعد احتلال العراق - محمد مساعد
- ١٥٥ المقاومة العراقية وشواهد استعادة العافية - أسامة عبد الرحيم

٧ ملف العدد / المرأة العراقية في زمن الديمقراطية

- ١٦٥ حقوق المرأة في العراق الجديد - هيفاء زنكنة
- ١٨٣ الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية - سارة علي

٧ تقارير واستطلاعات

- ١٩٣ تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية - نعم تشومسكي

٧ وثائق / اختيار الشيخ حارث الضاري ممثلاً للمقاومة العراقية

- ٢٠٣ إعلان الثقة والتحويل
- ٢٠٥ بيان قبول التحويل
- ٢٠٧ انضمام فصائل لموثق التحويل

مركز الأمة للدراسات والتطوير

وصف المركز

مركز الأمة للدراسات والتطوير مركز متخصص يعمل في مجال إعداد البحوث والدراسات الجادة المختصة بالشأن العراقي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية، ويهتم بالدراسات العامة في الشؤون الثقافية والعلمية والإدارية، كما يعنى بتدريب الكوادر وتطويرها وتأهيلها.

أهداف المركز

- (١) العناية بالدراسات والبحوث في الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأمنية والعلمية.
- (٢) دراسة وتحليل المشاكل والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق، ومحاولة وضع تصور أفضل لتشخيصها وكيفية التعامل معها، وآلية معالجتها.
- (٣) التعريف بثقافة مقاومة الاحتلال وممانعة مشروعه، وتعزيزها ونشرها.
- (٤) المساهمة في تنمية المجتمع العراقي على المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية.
- (٥) تدريب الكوادر وتأهيل العاملين في المجالات السياسية والقانونية والإدارية والإعلامية وحقوق الإنسان وتطوير مهاراتهم.
- (٦) رفع الجاهات والمؤسسات والهيئات ذات الاهتمام المشترك بالدراسات العلمية الرصينة والبحوث الموضوعية الهادفة.

الوسائل والأنشطة

- (١) تنظيم وإقامة المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والمحاضرات والدورات التدريبية المتخصصة وورش العمل.
- (٢) إعداد وتأليف ونشر الدراسات والأبحاث العلمية التي تتعلق بمجالات اهتمام المركز وأهدافه، بالإضافة إلى إصدار المنشورات العلمية الدورية وغير الدورية.
- (٣) التعاون العلمي مع الجامعات والهيئات والمراكز العلمية المتخصصة.
- (٤) ترجمة الدراسات والإصدارات المتعلقة باهتمامات وأهداف المركز ذات المستوى العلمي المتميز.

هيكلة المركز

يتألف المركز من الهيئة الاستشارية التي تضم مجموعة من أساتذة الجامعات والمختصين ورجال الثقافة، والإدارة والتي تتكون من مدير المركز ورؤساء الأقسام ومسؤولي الوحدات المتخصصة، وأقسام المركز ووحداته وهي قسم الدراسات وقسم التطوير ويتكون المركز من عدة وحدات متخصصة منها وحدة الرصد والتوثيق و وحدة الترجمة و وحدة المجلة.

(حضارة) على مشارف عامها الثاني

رئيس التحرير

بإطلالة هذا العدد تكون (حضارة) قد بلغت العدد الثالث الذي يكمل السنة الأولى من المجلة مع العدد التجريبي الذي صدر في مطلع (تشرين الأول - أكتوبر / ٢٠٠٨م)، وبذلك تثبت إدارة تحرير (حضارة) عزمها على مواصلة مسيرتها وتصميمها على تطوير المجلة محتوى وإخراجاً، بعد أن حققت عدة خطوات في هذا الصدد لعل آخرها هو طباعة العدد الثاني من المجلة طبعة ثانية في بغداد تزامن توزيعها مع توزيع المجلة خارج العراق، وهي نقلة مهمة كان لها صداها الطيب داخل العراق، الذي وزعت فيه المجلة في عدة محافظات بواسطة مؤسسة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، كما بلغت المجلة عدداً من العواصم الأوروبية والآسيوية والعربية بفضل جهود عدد من المهتمين بها والساعين للتعريف بما تنشره من دراسات متخصصة.

وفي هذا العدد تتواصل معنا بعض الأقلام العراقية والعربية المهمة التي وجدت في حضارة فرصة مناسبة للتواصل مع القارئ العراقي والعربي، ومن هذه الأقلام الدكتور عبد الكريم العلوجي في بحثه: (الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال)، والأديبة والباحثة هيفاء زنكنة في دراستها: (حقوق المرأة في العراق الجديد، تفكيك الصورة النمطية)، والدكتورة وصال العزاوي

أستاذة العلوم السياسية وعميدة كلية العلوم السياسية في جامعة النهرين سابقاً في دراستها: (حوار الأديان ضرورة.. ولكن)، والأستاذ محمد جمال عرفة الصحفي والمحلل السياسي المصري المعروف في مقاله المهم عن (العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيثام والأرامل).

ويبقى حديث المقاومة عالياً في هذا العدد ببحثين ومقالين.. يتحدث البحث الأول عن: (ثقافة المقاومة بين احتلالين) وهو للباحث في مركز الأمة خالد القيسي، فيما يتناول الباحث حسين الرشيد موضوع: (جيش الاحتلال في العراق بين الفرار والانتحار).. أما المقالين فالأول بعنوان (الاتجاهات التشريعية وأثرها في دعم القضية العراقية) للباحث محمد مساعد آل جعفر، والثاني (المقاومة العراقية، قراءة في شواهد استعادة العافية) للإعلامي المصري أسامة عبد الرحيم، فضلاً عن حقل الوثائق الذي خصص في هذا العدد لهذا الشأن أيضاً.

ويمتاز هذا العدد بدراسة خاصة عن (القضية العراقية من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق مهاتير محمد) أعدها الدكتور أحمد الجنابي. كما لا يغيب في هذا العدد البعد الاقتصادي الذي نجد بشأنه دراسة للباحث في مركز الأمة عبد الستار المرسومي يتناول فيها: (تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية). أما ملف العدد فقد خصص هذه المرة لموضوع مهم وحيوي وهو موضوع المرأة العراقية وهمومها.. وضمّ هذا الملف فضلاً عن دراسة الباحثة هيفاء زنكنة المتقدمة دراسة عن: (تحقيق الديمقراطية الأمريكية في هموم اللاجئة العراقية) للإعلامية سارة علي.

وفي حقل الدراسات المترجمة تنشر (حضارة) في هذا العدد مقالة مترجمة عن الإنكليزية للمفكر الأمريكي المعروف نعوم تشومسكي نشرت على موقعه الرسمي في أواخر شهر (٤/٢٠٠٩م) بعنوان: (تاريخ التعذيب في الولايات المتحدة الأمريكية) وهي تبحث في كون التعذيب سياسة متبعة في النظام السياسي الأمريكي منذ تشكله، وتأتي هذه الدراسة في إطار الجدل والنقاش المحتدم في أمريكا بشأن وعود الرئيس المنتخب فيما يتعلق بموضوع إنهاء التعذيب في معتقل غوانتانامو.

وأخيراً فهذا هو نتاج (حضارة) في عددها الثالث سائلين الله تعالى دوام التوفيق والتسديد؛ لأجل تقديم النافع من الدراسات والجديد من المشاركات، وكلنا أمل بأن نسمع من المتابعين والمهتمين ملاحظاتهم التي كانت عوناً لنا في الأعداد السابقة وستكون عوناً لنا دائماً إن شاء الله.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

د. عبد الكريم العلوجي^(١)

كان الدور الإيراني بالغ النشاط والفعالية على مدار عام ٢٠٠٥م فمن ناحية استفادت إيران من أوراق كثيرة أتاحتها وجود أحد المقربين منها هو إبراهيم الجعفري على رأس الحكومة العراقية حيث سمح لها هذا الوجود بحيازة مصادر للتأثير السياسي والاقتصادي والأمني على الساحة العراقية، ومع إن شروع الولايات المتحدة في مراجعة موقفها من الأطراف الشيعية خوفاً من تنامي النفوذ الإيراني في العراق، وبفعل إدراكها استحالة إنكار القوى السنية في المعادلة الأمنية والسياسية العراقية كان من شأنه أن يفضي إلى صدام مصالح بين الولايات المتحدة وإيران إلا أن إدراك الطرفين حدود القوة في علاقتهما الثنائية، مثلّ ضابطاً لتفجير صراع مفتوح بينهما أكثر من ذلك، مثلّ العراق ساحة محتملة للتفاهم بين الطرفين على بعض الملفات العالقة بينهما والتي تتجاوز الشأن العراقي إلى طبيعة الدور الإقليمي لإيران عموماً.

وقد اعترف محمد علي أبطحي نائب الرئيس الإيراني السابق بالدور الإيراني في العراق في ختام أعمال مؤتمر الخليج وتحديات المستقبل الذي

^(١) كاتب ومحلل سياسي عراقي.

نظمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية بإمارة أبي ظبي بتاريخ ٢٠٠٤/١/١٥م بأن بلاده " قدمت الكثير من العون للأمريكيين في حربيهم ضد أفغانستان والعراق " ومؤكداً أنه لولا التعاون الإيراني لما سقطت كابول وبغداد بهذه السهولة.

وفي سياق التجاذب واللعب على الحبال المشتركة والغزل الخفي بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية وتصفية الحسابات المعلقة بينهما ما هدد به علي أكبر هاشمي رفسنجاني قائلاً: "إن لإيران دوراً مهماً وحاسماً في تشكيل مستقبل العراق وإن الولايات المتحدة الآن عالقة بالوحل العراقي، وإنها تعلم علم اليقين إن إيران تملك طابوراً طويلاً من الأدوات التي تستطيع من خلالها التأثير في العراق، فالحرس الثوري الإيراني وضباط الاستخبارات الإيرانية كانوا يعملون في العراق منذ سنوات ولديهم شبكات عميقة ومقتدرة، وصفوة القول إن الإيرانيين لا يبدون مهتمين باستقرار العراق أو من هو الذي سيحكمه ولكن سياسة إيران هذه تعطي إشارات من خلال تعليقات رفسنجاني أو أبطحي أو غيرها من أن إيران لديها الاستعداد الكامل لعقد صفقات، وقد سعت إيران من خلال تحركاتها داخل العراق إلى إبراز دورها الكبير الذي يمكن أن تلعبه في الساحة العراقية وإظهار مقدرتها على تحريك الأحداث للتواصل إلى فرض قناعاتها على الإدارة الأمريكية بشكل غير مباشر من خلال إحراجها داخل الساحة العراقية، وهو تكتيك مرحلي تسعى من خلاله إيران إلى توظيف تداعيات الأحداث في خدمتها.

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانب السنة في العراق يرون أن إيران عدواً تاريخياً للعرب والعروبة، حيث كان لشعار تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخندق والتناحر الطائفي، إن ظروف إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور

والنفوذ الإيراني في المنطقة، الأمر الذي مهّد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة قد أخذ يثير القلق الدولي والإقليمي.

إيران والعراق

في ظل حرب الولايات المتحدة على الإرهاب حصلت إيران على دور إقليمي يأخذ شكله الأوضح في تداعيات المشهد الدموي في العراق من خلال دعمها لبعض الجماعات المتشددة هناك، فهل أصبح العراق ساحة لمعادلات سياسية عالمية أخرى؟.

بعد انتهاء العمليات العسكرية للحرب التي قادتها الولايات المتحدة على العراق لإسقاط نظام الرئيس العراقي صدام حسين تأكد القادة العسكريون أن المهمة لم تكن لتنتهي بتلك السهولة التي كانوا يتوقعونها فهم أدركوا أنهم دخلوا بأرجلهم إلى خضم تركيبة عرقية معقدة إلى حد بعيد، تصاعدت وتيرة هذه العمليات بصورة كبيرة في الفترة التي أعقبت الإعلان الشكلي عن انتهاء العمليات العسكرية وهيمنت حالة دموية من عدم الاستقرار في العراق وقع ضحيتها الآلاف من الأبرياء بشكل أصبح الاستقرار في العراق لا يعدو كونه مجرد حلم ليس إلا.

وفي خضم هذه الأحداث وفي سياق عملية البحث عن المسؤول الأول عن حالة العراق الدموية اتهم جنرال أمريكي رفيع المستوى لأول مرة إيران بدعم جماعات شيعية متشددة في العراق ويرى الجنرال "مايكل باربيرو" أن طهران تنتهج سياسة "دعم اللاستقرار في العراق" وتغذي العنف المستمر هناك، كما أشار "باربيرو" إلى أنه من غير المستبعد أن تكون إيران مسؤولة عن تمويل

وتسليح جماعات متشددة في "المعسكر الشيعي" في ظل الانقسام والتخندق الطائفي الذي يشهده العراق وقال "باربيرو": إن إيران زودت هذه الجماعات بمعدات تقجير حديثة ساهمت بدورها في مقتل أكثر من (٣٠٠٠) عراقي خلال شهر تموز/ يوليو ٢٠٠٦م وحده، ويبدو أن ارتفاع عدد ضحايا حمام الدم العراقي خلال الأشهر السابقة لهذا التاريخ لم يكن السبب الوحيد في تجديد توجيه هذه الاتهامات، فالمشهد السياسي في المنطقة عموماً مازال مثقلاً بعد بتداعيات الصراع بين إسرائيل وحزب الله اللبناني ومسألة الدور الإيراني في دعم حزب الله، فضلاً عن حالة الغموض التي ما تزال تكتنف مستقبل التعامل مع البرنامج النووي الإيراني، فهذه الانتقادات الأخيرة أتت متزامنة مع مهاجمة الإدارة الأمريكية للحضور الإيراني على كثير من الجبهات الإقليمية في المنطقة.

دور إقليمي كبير وقلق دولي أكبر

يرى أغلب المحللين أن عهد الرئيس الإيراني "أحمدي نجاد" شهد زيادة ملموسة في التطلعات الإيرانية إلى لعب دور أكبر في محيطها الإقليمي وبالتالي زيادة نفوذها في المنطقة، ويبدو أن ظروفًا إقليمية ودولية كثيرة ساهمت في زيادة هذا الدور والنفوذ الإيرانيين في المنطقة، الأمر الذي مهد لحضور إيراني أكبر في الصراعات الإقليمية التي تكتنف المنطقة عموماً، ومما لا شك فيه أن دورها في العراق الذي ينبغي ألا ينظر إليه بمعزل عن دورها كقوة إقليمية في المنطقة، قد أخذ يثير قلق دولي وإقليمي، وبشأن ذلك ترى دراسة صدرت مؤخراً عن المعهد الملكي البريطاني للدراسات الدولية "أن حرب أمريكا على الإرهاب أتت بالمنفعة الكبيرة على تقوية دور إيران في المنطقة، إذ أزال هذه الحرب اثنتين من الحكومات الإقليمية المنافسة

للدولة الإسلامية الإيرانية، فبعد أن أسقطت الولايات المتحدة وحلفائها نظام طالبان عام ٢٠٠١م ونظام الرئيس العراقي السابق صدام حسين في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣م فشلت الإدارة الأمريكية في استبدالهما بهيكل سياسية مستقرة ومتماسكة، وقد منحت حالة الفراغ الإقليمي هذه إيران الفرصة لا لأن تحتل مركز القوة الوحيدة في المنطقة فحسب، بل للعب دور مباشر في العراق وجهاً لوجه مع عدوها اللدود أمريكا.

إيران في المنظور العراقي

تتباين النظرة إلى طبيعة العلاقات التي تربط العراق بإيران فمن جانب يرى سنة العراق إيران "عدواً تاريخياً للعرب والعروبة" وكان لسياستها في تصدير الثورة تبعات جسيمة على انزلاق العراق إلى هاوية التخندق والتناحر الطائفي، فالزعماء السنة يتهمون طهران بالتحريض على إثارة القلاقل في العراق لإضعاف القوة العسكرية الأمريكية في المنطقة والتطلع إلى الاحتياطات النفطية في جنوب العراق، وقد لا تتفق هذه النظرة إلى العلاقات الإيرانية - العراقية مع المفهوم العروبي الذي انتهجه حزب البعث في تقييم طبيعة العلاقة مع إيران فحسب، بل مع نظرة دول الخليج أيضاً التي تخشى من تنامي الدور الإيراني في الشرق الأوسط، ويبدو أن للتنافس بين إيران "الشيعية" والمملكة السعودية "السنية" على الصعيدين السياسي والمذهبي بصورة خاصة دور في تعميق هذه النظرة، فعلى المستوى الخليجي أثارت السياسة الأمريكية الخاطئة في العراق والتي قادت إلى تعاظم الدور الإيراني فيه هواجس هذه الدول المتفقة مذهبياً مع سنة العراق، على خلفية الميراث السلبي لكل منها في علاقاتها مع حكومة طهران، كما أن التخوف من انتقال النفوذ الإيراني المباشر إلى خارج حدود العراق، في ظل إصرار إيران على

امتلاك التكنولوجيا النووية دفع الكثير من زعامات هذه الدول للحديث عن الخشية من منطقة نفوذ "شيعية" أو كما سماها العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني "منطقة الهلال الشيعي"، ويمكن أن تكون منطقة النفوذ هذه أحد عناصر عدم الاستقرار في هذه الدول التي تقطنها أقليات شيعية ترتبط مذهبياً بإيران. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه وعلى الرغم من الوحدة المذهبية بين شيعة العراق وإيران فإن العلاقة مع إيران تختلف من تيار شيعي إلى آخر، فمن جانب يرى المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة الإسلامية في إيران صديقاً كونها احتضنت قيادات وزعامات هذين الحزبين في ثمانينيات القرن الماضي، بعد أن وقعوا خلال تلك الفترة تحت طائلة المطاردة والاعتقال من قبل نظام صدام حسين السابق، فكلبار المسؤولين في هذين الحزبين اللذين يشكلان أكبر كتلتين شيعيتين في البرلمان العراقي، رفضوا في أكثر من مناسبة الحديث عن الدور الإيراني في العراق، ومن جانب آخر فإن هنالك تيارات شيعية أخرى كالفضيلة والولاء اتهمت إيران علناً بإثارة العنف في العراق ومحاولة زعزعة استقراره، ولذلك فهي تدعو إلى محاربة النفوذ الإيراني في بلاد الرافدين.

السياسة الإيرانية في العراق وأهدافها الاستراتيجية

لم يعد التقارب الأمريكي – الإيراني في العراق سراً، فقد أعلن وزير الخارجية الإيراني "كمال خرازي" أن الولايات المتحدة الأمريكية طلبت من طهران مساعدتها في تسوية الأزمة العراقية وقد أرسلت الأخيرة بالفعل وفداً إلى العراق وقام بجهود تهدف إلى التأثير على الشيعة العراقيين باتجاه التهدة أي في الحقيقة حل الأزمة الأمريكية في العراق، ومنذ الاحتلال الأمريكي للعراق في نيسان ٢٠٠٣ م لعبت إيران دوراً انتهائياً في المسألة العراقية،

وسعت بانتظام إلى مقايضة دعمها للمحتلين الأمريكيين بتحسين علاقاتها مع واشنطن.

غير أن السياسة الإيرانية في العراق المحتل لها ثلاثة أهداف استراتيجية تتطابق مع السياسة الأمريكية موضوعياً وتؤسس للتحالف الإيراني - الأمريكي في المنطقة، وهذه الأهداف هي:

١- تصنيع الطائفة أي تحويل الشيعة العراقيين من مواطنين إلى طائفة مغلقة، وهو ما يضمن نسبياً تحويلهم إلى امتداد إيراني، وتستخدم إيران في تحقيق هذا الهدف وسائل دينية وإعلامية أي أن وسيلتها الأهم تتمثل بالوجود الأمني الكثيف في جنوب العراق تحت يافطة (المجلس الأعلى للثورة الإسلامية) فيلق بدر، ويشارك قادة هذه الهيئة التابعة للمخابرات الإيرانية في مجلس الحكم سابقاً والحكومات العراقية السابقة، بزعامة إبراهيم الجعفري والحالية بزعامة نوري المالكي والهيئات السياسية الأمنية الأخرى التي أنشأها المحتلون الأمريكيون بينما تقوم ميليشيا بدر بعمليات إرهابية منظمة ضد المواطنين العراقيين الشيعة، مستخدمة كل الوسائل بما فيها القتل والاعتقال وإرهاب المدنيين وترويع ومطاردة الوطنيين العراقيين من التقدميين والقوميين الشيعة، بحيث تتم تصفية كل الخارجين عن مشروع تصنيع الطائفة وتغدق طهران الأموال بكثافة لخدمة هذا المشروع.

٢- ضمان عدم نهوض الدولة الوطنية العراقية وهي التي تشكل تهديداً استراتيجياً للنفوذ الإقليمي الفارسي، وتعرقل الأطماع الفارسية في أرض الرافدين، ومما لا شك فيه أن تصنيع الطائفة وتدعيم المشروع السياسي الأمريكي في العراق يصبان في طاحونة تدمير الدولة الوطنية العراقية.

٣- ضمان النفوذ الإيراني في بغداد، بحيث يكون لطهران رجالها المؤثرون في الهياكل السياسية العراقية، ولذلك كانت إيران هي الدولة الإسلامية الوحيدة

التي اعترفت رسمياً بـ (مجلس الحكم الانتقالي) الذي أسسه الغزاة، وسقط سياسياً في انتفاضة ربيع بغداد، ولا يريد الإيرانيون من العراق فقط تحقيق أهداف سياسية وأمنية وطائفية فهم يريدون أيضاً المشاركة في نهب العراق. وما يزال العراقيون يذكرون بدهشة كيف أن "عبد العزيز الحكيم" وهو رجل طهران في العراق دعا خلال رئاسته لمجلس الحكم إلى أن يدفع الشعب العراقي مائة مليار دولار تعويضات حرب لإيران.

أهداف إيران الاستراتيجية في العراق

- ١- احتواء شيعة العراق من خلال الأحزاب الموالية لها واستخدامهم كورقة مقايضة في أي استحقاق إقليمي ودولي لتهدئة الوضع أو إثارته في العراق.
- ٢- دعم المرجعية الشيعية والحوزة في النجف تمهيداً للسيطرة على قراراتها ومحاولة تحجيم دورها كي تبقى مرجعية قم هي المرجعية الأولى لشيعة العالم.
- ٣- إيران لديها مشروع نووي طموح ولديها حلم بإعادة الامبراطورية الفارسية والصفوية ولن تتخلى عنها بسهولة؛ لذلك تسعى إيران إلى أن تتخذ من العراق ورقة ضغط سياسة تسالوم بها في الساحة الدولية.
- ٤- منع شيعة العراق من توحيد كلمتهم داخل العراق أو بسط سيطرتهم على أبناء الطائفة الشيعية بشكل يهدد السيطرة الإيرانية عليهم.
- ٥- إملاء المقررات الإيرانية على الأحزاب الموالية لها بصورة تؤثر على مجريات الأحداث في الساحة العراقية.
- ٦- خلق تغييرات ديموغرافية على الأرض العراقية بغية تحويل جنوب العراق (خاصة بعد الانسحاب الأمريكي) إلى مقاطعة إيرانية أو إقليم عراقي

تحت الوصاية الإيرانية من خلال تشكيل تجمعات إيرانية في تلك المناطق وتطهيرها من أهل السنة بالاعتقال أو الاغتيال أو التهجير.

٧- محاولة اقتراب النظام الإيراني من الإدارة الأمريكية ومحاولة طمأنتها لإكمال المشروع النووي الإيراني ولن يتم ذلك إلا على أرض العراق.

٨- السيطرة على المزارات والعتبات للاستفادة من الأموال والخمس المودوعة فيها.

٩- تسعى إيران إلى إقناع الأمريكيين بالدور الإيراني (السياسي والأمني في العراق) وهذا ما يشار إليه من توجيه الرئيس الأمريكي سفيره في العراق بالتفاوض مع إيران من أجل ترتيب الوضع في العراق.

١٠ - خلق سيطرة إيرانية كافية على أرض العراق تحت مظلة الاحتلال الأمريكي والبريطاني بأدوات دينية المظهر وعلى النموذج الإيراني مما يضمن لإيران الحيلولة دون قيام عراق يهدد إيران.

١١- بسط النفوذ الاقتصادي الإيراني في العراق من خلال ما يلي:

أ- تنشيط طبقة قوية من التجار الإيرانيين العائدين إلى العراق وبالأخص بمدينة كربلاء والنجف ومحاولة السيطرة على السوق العراقي.

ب- فتح فروع لبنوك إيرانية تحت عباءة عراقية في مدن عديدة مثل الكوت والبصرة والديوانية.

ج- خلال السنوات الأخيرة وبسبب المقاطعة الدولية للعراق أصبحت حقول النفط العراقية غزيرة بالنفط لذلك تسعى إيران إلى السيطرة على النفط العراقي وذلك من خلال مد ثلاثة أنابيب لنقل النفط، وقد ذكر وزير النفط الإيراني (بيجان زنكنة): "أن العراق سيصدر النفط الخام إلى إيران"، وأضاف زنكنة أيضاً: "إن إيران ستمد أنبوبين لنقل الخام من البصرة إلى المصفاة الإيرانية.

١٢ - إنشاء وسائل الإعلام للتمهيد الفكري للمشروع الإيراني، واغتيال العناصر والرموز الشيعية التي تشكل خطراً على المشروع الإيراني في العراق كما حدث لـ "عبدالمجيد الخوني".

لقد أثبتت التطورات الأخيرة في العراق فشل المشروع الأمريكي لتصنيع الطائفية فظهرت بالمقابل وحدة العرب العراقيين تحت راية المقاومة الوطنية وخلال بضعة أيام من انتفاضة الشعب العراقي سقطت الترتيبات الأمنية والسياسية التي ظن المحتلون الأمريكيون أنهم أرسوها خلال سنوات من الاحتلال الصعب.

وهكذا لم يكن أمام إدارة بوش الصغير سوى اللجوء إلى الشريك الإيراني لانقاذ الموقف، فهل ستتحج طهران في مساعيها لوقف الانتفاضة العراقية وإعادة الشيعة إلى بيت الطاعة الأمريكي؟
تتلخص الإجابة فيما يلي:

١- الكتلة الرئيسية من الشيعة العراقيين هي كتلة عربية أصيلة، وتتنظر إلى إيران من منظور قومي لا ديني، وقد ثبت ذلك تاريخياً من خلال استبسال هؤلاء في القتال ضد ملالي إيران أثناء الحرب العراقية - الإيرانية.

٢- من الناحية العقائدية فإن شيعة العراق لا يؤمنون بولاية الفقيه مثلما هو حال التشيع الفارسي، وهذا فارق نوعي سياسي، إذ لا يمكن مع ذلك استتساخ التجربة السياسية الإيرانية في العراق أو إخضاع العراق لولاية الفقيه الإيراني.

٣- التشيع في أساسه (مثل التنسن) عربي عراقي وللشيعة العراقيين بل للعراقيين من كل المذاهب والطوائف، مصلحة وطنية في أولوية مرجعية النجف على مرجعية قم.

٤- نفوذ إيران بين الشيعة العراقيين محصور بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وإلى حد ما في جناح حزب الدعوة وعبر وسائل أمنية ومالية ولهم بالطبع صلات مع مرجعية النجف، المستقلة ولكنها ربما تلتقي مع الإيرانيين في السعي إلى صفقة مع الأمريكيين، وبالمقابل فإن تيار الصدر مستقل عن إيران وهو تيار عربي عراقي نشأ داخل العراق ورفض دائماً إقامة صلات إقليمية أو دولية ضد العراق، كذلك فبين الشيعة قوى دينية ديمقراطية ووطنية ويسارية مؤثرة.

والأهم من كل ذلك هو أن انتفاضة الحركة الصدرية هي في النهاية تعبير فئات شعبية مستضعفة ولها مصلحة مباشرة في جلاء المحتلين وإسقاط ترتيباتهم السياسية، والعراق كما أثبتت هو خزان وطني وثوري لن تستطيع المساعي الإيرانية أو سواها لجمه.

الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

منذ قديم الزمان والعراق يواجه تحديات وأطماع كثيرة من الأعداء وشهد صولات وجولات ونزاعات وحروباً دامية، هؤلاء الأعداء هم على نوعين: العدو الأول: وهو على نمط الاستعمار البريطاني ويكون عادة عدواً مكشوفاً يستهدف الموقع الجغرافي والاستراتيجي والثروة النفطية وكذلك الموقع السياسي في المنطقة، فهذا هو الاستعمار التقليدي والذي تجد في عام ٢٠٠٣م عندما غزت القوات الأمريكية - البريطانية الغاشمة العراق وتم انتهاك سيادته واستقلاله في ممارسة خطيرة حدثت في القرن الحادي والعشرين وفي عالم متحضر يفترض أن احتلال الدول العظمى للصغرى قد انتهى.

والعدو الثاني: هو الأشد عدواة فإنه يستغل الدين والمذهب للوصول إلى أهدافه السياسية في داخل العراق وكانت على مر التاريخ إيران (أو دولة

فارس) هي اللاعب الأساسي في إشغال الساحة العراقية بالفتن والمشاكل المتواصلة.

حقيقة الدور الإيراني في العراق بعد الاحتلال

أثار التصريح الذي نشرته السياسة الكويتية بتاريخ ٢٠٠٦/٣/٣م عن السيد "عبد الله جول" وزير الخارجية التركي تحت عنوان (تركيا تحذر من مخطط إيراني للسيطرة على العراق وتصدير الثورة إلى الخليج) ومن قبله تصريحات وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل والمسؤولين الأردنيين عن الخطر الذي يتهدد هوية العراق ومستقبل المنطقة من الطرف الإيراني تساؤلات كثيرة لاسيما أن تلك التصريحات كانت موجهة للأمريكان ومتهمة لهم بأنهم يسعون لتسليم العراق إلى إيران، ولتوضيح الصورة والإجابة على تلك التساؤلات نطرح المحاور الآتية:

المحور الأول: - أمريكا وإيران خلاف أم وفاق؟

لا شك أن الذي يتابع مسيرة (الثورة الإسلامية) على يد الخميني والحرب الإعلامية مع الولايات المتحدة الأمريكية وقضية الرهائن الأمريكيين الذين احتجزوا من قبل (الطلاب السائرون على خط الإمام) الذي يتابع كل هذا لا شك أنه سيصل إلى أن هناك خلافات جوهرية بين الطرفين ليس من السهولة التقليل من شأنها، إلا أن بعض المراقبين سجل في الاتجاه المعاكس مؤشرات أخرى قد تكون من الناحية العملية أقوى في الدلالة ومن هذه المؤشرات:

١- سكوت الإعلام الأمريكي المطبق حول قضية الجزر الثلاث المتنازع عليها بين إيران وبين دولة تصنف على أنها قريبة من الولايات المتحدة رغم

المطالبات المتكررة لدولة الإمارات العربية من خلال مجلس التعاون الخليجي لاسترداد هذه الجزر!.

٢- سكوت الأمريكان عن الوضع المأساوي الذي تعيشه الأقليات الإيرانية مثل السنة والأكراد والعرب والبلوش في ظل (الحكومة الإسلامية) بينما نذكر كيف استغلت هذه المسألة ضد العراق.

٣- تعامل الأمريكان مع المعارضة الإيرانية المسلحة (مجاهدي خلق) التي كان لها معسكرات معروفة داخل العراق وبعد دخول الأمريكان اتجهت القوات الأمريكية إلى هذه المعسكرات وحاصرتها وأجبرتها على نزع سلاحها مع أن هذه الميليشيات علمانية التوجه بخلاف الحكومة الإيرانية.

٤- تخليص إيران من الجارتين اللدودتين (طالبان) في الشرق و(صدام حسين) في الغرب، نعم ربما تكون هذه فائدة غير مقصودة من قبل الأمريكان ولكن يبقى السؤال: هل كان صدام وطالبان أخطر على المشروع الأمريكي من إيران (الحكومة الإسلامية) ولماذا؟.

٥- تعامل الأمريكان مع الأذرع الإيرانية في العراق بعد الاحتلال، حيث لا يخفى أن جل الأحزاب والمنظمات والمليشيات التي تعاونت مع الاحتلال وكانت رأس الرمح في غزو العراق كانت كلها مؤسسة ومدرّبة في إيران مثل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية (عبدالعزیز الحكيم) وجناحه المسلح (فيلق بدر) وحزب الدعوة (إبراهيم الجعفري) وهؤلاء هم عصب النظام العراقي الجديد بعد الاحتلال، وحتى على مستوى المرجعيات الدينية قام الأمريكان بمساعدة الإيرانيين في تهميش كل المراجع الشيعية العراقية مثل: آية الله العظمي فاضل المالكي وآية الله أحمد البغدادي وآية الله جواد الخالصي، وغيرهم كثير وتمّ التعامل حصراً مع آية الله السيستاني، وهو إيراني الجنسية فارسي الأصل لا يمتلك أي وثيقة عراقية، وقد أعلن رفضه

للجنسية العراقية التي منحها إياه الجمعية الوطنية الحالية التي يسيطر عليها الاتجاه الشيعي الإيراني!، واليوم تعلن الولايات المتحدة وإيران الموافقة على إجراء مفاوضات مباشرة بخصوص العراق استجابة لدعوة المجلس الأعلى وهذا اعتراف صريح بأن إيران هي الفاعل الأقوى في المشهد العراقي، ونسجل هنا اعتراض التيار الصدري الذي يمثل القاعدة الأعرض للتشيع العربي العراقي على هذه المبادرة كما هو حال هيئة علماء المسلمين وكل القوى العراقية الوطنية.

٦- وربما يتشكل على كل هذه المؤشرات الأزمة الأخيرة حول المفاعل النووي، ويمكن الجواب: بأن الأمريكيين يفكرون بالاستفادة من إيران ضمن سقف محدد لا يتعارض على الأقل مع سقف الكيان الصهيوني، وربما لو كان أي نظام عربي آخر يفكر بما تفكر به إيران سيواجه بقوة أشد حتى لو لم يكن إسلامياً، مثل صدام والقذافي.

المحور الثاني: العراق وإيران

لا شك أن حرب الثماني سنوات بين عراق صدام وإيران الخميني، أذكت تاريخاً طويلاً من الصراعات المدبرة تعود إلى أيام الفتح الإسلامي التي لازال الإيرانيون يجاهرون بكراهيتهم لقادة هذا الفتح كما ذكر كتاب "كشف الأسرار للخميني" الذي يتهم فيه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالزندقة، ومن المراقبين من يرجع بهذا الصراع إلى تاريخ نبوخذ نصر الملك العراقي الذي تمكن من أسر أمراء اليهود، وكورش الملك الإيراني مسيح اليهود ومحررهم من العراقيين.

لم يخف الإيرانيون رضاهم بما حصل للعراق على يد الأمريكان ومنهم من أعلن أن العراق ما كان له أن يسقط بيد الأمريكان لولا مساعدة الإيرانيين، فماذا تريد إيران من العراق اليوم؟. يمكن بهذا الصدد تسجيل الملاحظات الميدانية الآتية:

١- تسعى إيران بقوة لتكريس مبدأ الفيدرالية في العراق تحقيقاً لمصلحتها الإقليمية في عراق مفتت ضعيف، والأحزاب الشيعية المرتبطة بإيران هي التي أصرت على هذا المبدأ على الرغم من أنهم يدعون تمثيل الأغلبية الشيعية في العراق، والمتعارف عليه أن الأقليات هي التي تتوجس من الحكومة المركزية القوية ولذلك تلجأ إلى الفيدرالية لحماية ذاتها وخصوصيتها، وعلى هذا فحينما يطالب الأكراد بالفيدرالية تكون مطالبتهم مفهومة، أما أن تطالب الأكثرية بهذا فمعنى ذلك أن هذه الأكثرية إما أنها أكثرية وهمية، أو أنها تعمل لصالح أطراف أخرى.

٢- تسعى إيران بقوة ومن خلال التنظيمات الموالية لها أيضاً لتهجير العوائل السنية من بغداد، ومن منطقة المدائن التي فيها "إيوان كسرى" بشكل خاص الذي يذكر بأيام الاحتلال الفارسي للعراق قبل الإسلام، كما أن الحكومة العراقية الحالية لم تخف رغبتها في تغيير محيط بغداد "ذي الأغلبية السنية"؛ حيث صرح موفق الربيعي مستشار الأمن القومي بأن بغداد لا يصح أن تبقى محاطة بالإرهابيين وموفق هذا هو كما يقال "كريم شاهبور" (إيراني الأصول) ولتحقيق هذه الغايات قامت وزارة الداخلية والمليشيات المرتبطة بها بحملات قتل وتعذيب وتشويه للجثث في هذه المناطق ولم يعد الأمر خافياً بعد اكتشاف السجون السرية وفرق الموت، واعترافات مدير مشرحة بغداد الذي أعلن عن وصول أكثر من سبعة آلاف جثة عليها آثار التعذيب وهرب إلى خارج العراق، وكان من المضحك أن تجيب الحكومة رسمياً: بأن هؤلاء الذين

يقومون بهذه الجرائم هم رجال يرتدون ملابس وزارة الداخلية ويستخدمون سيارات وزارة الداخلية لكنهم غير منتسبين فعلاً لهذه الوزارة، تجدر الإشارة إلى أن وزير الداخلية هذا هو "بيان جبر صولاغ" المعروف بأنه أحد قياديين فيلق بدر الذي أشرفت على تأسيسه وتجهيزه المخابرات الإيرانية واعترف بالاشتراك مع القوات الإيرانية في قتالها للعراقيين إبان حرب الثماني سنوات واليوم يفاخر بأنه يعمل جنباً إلى جنب مع القوات الأمريكية في ضرب المقاومة العراقية والمعارك الكبرى التي دارت في الفلوجة والنجف وسامراء.. إلخ شاهدة على ذلك.

٣- موقف إيران من المقاومة العراقية: كان يفترض بإيران أن تستثمر المقاومة العراقية لصالحها في صراعها المعلن مع الولايات المتحدة الأمريكية إلا أن الذي يجري على الأرض كان بخلاف هذا تماماً حيث إن الذي يقوم باعتقال أفراد المقاومة أو المشتبه بعلاقته مع المقاومة هم الأذرع الإيرانية المعروفة وحتى خطباء المساجد الذين يحثون الناس على الصمود يتم اعتقالهم وقتلهم بطريقة بشعة، وهناك إحصائيات كثيرة في هذا وبعض الذين أفرج عنهم صرحوا أن بعض ضباط التحقيق كانوا يتكلمون الفارسية، وقد يقال إن هذا بدافع طائفي، ولكن الحقيقة أن موقف إيران هذا لم يختلف كثيراً عن موقفها من مقاومة الصدر في النجف وبغداد والبصرة.

حيث اشتركت القوات الموالية لإيران مع القوات الأمريكية في محاصرة الصدر، وبقيت إيران تمارس الضغط على مقتدى الصدر حتى أعلن أخيراً عن انضمامه للمشروع السياسي تحت قائمة الائتلاف التي يقودها "عبد العزيز الحكيم"، وبهذا يكون موقف إيران من المقاومة لا يقل خطورة عن موقف الأمريكان أنفسهم، إلا أن هناك فارقاً واحداً يضاعف من خطورة إيران ألا وهو أن الاحتلال الأمريكي مدان عربياً وإسلامياً وحتى عالمياً، أما إيران

فإنها تقوم بكل ما تقوم به وهي في وضع مريح جداً حيث إنها أمنت أية ردة فعل عربية أو حتى سنية، وذلك للأسباب الآتية:

١- إن الحرب الإعلامية بين إيران وأمريكا والتهديدات التي يطلقها الرئيس الإيراني أحمدني نجاد ضد الكيان الصهيوني جعل من الصعب إدانة الإيرانيين لأن إدانتهم تعني الاصطفاف مع الامبريالية الأمريكية، وبهذا يتم التغاضي بل وعدم الرغبة أصلاً في بحث حقيقة الدور الإيراني في العراق والمنطقة.

٢- إن الحركات الإسلامية والواجهات العلمية لا تريد أن تظهر بالمظهر الطائفي وقد ظهر هذا جلياً في الأحداث الأخيرة حيث سارعت تلك الحركات والواجهات بإدانة تفجير مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء بينما تغاضوا عن هدم مائتي مسجد من مساجد السنة وحرق المصاحف التي تناقلت صورها الكثير من وسائل الإعلام.

٣- إن إيران تساعد بعض الحركات المقاومة في فلسطين ولبنان وإن كنا لا ندري حجم هذه المساعدات، لكن من الواضح أن هناك لقاءات رسمية متكررة، ومن هذه الناحية قد يفهم موقف هذه الحركات لكن المفكرين والسياسيين في طول العالم الإسلامي وعرضه عليهم أن يسألوا الإيرانيين عن سر دعمهم لحركات المقاومة في لبنان وفلسطين ومحاربتها للمقاومين في العراق بل وتعظيمها وتمجيدها بالذين تحالفوا مع المحتل الأجنبي حتى صرنا نسمع من الإيرانيين وحتى من بعض اللبنانيين مصطلح "شهيد المحراب" على محمد باقر الحكيم وهو الذي لعب دوراً خطيراً في تسليم العراق للمشروع الصهيوني الأمريكي.

إن هذا التساؤل لن يؤثر على مستقبل الحركات المدعومة من إيران بل ستجد إيران أفضل رد على هذه التساؤلات هو دعمها المباشر لهذه الحركات التي اكتسبت شرعية عامة في الأوساط العربية والإسلامية وبنفس الوقت

تحقق هذه التساؤلات هدفها في الضغط على إيران لتخفيف حملتها ضد العرب السنة والمقاومة بصورة خاصة.

وإذا كان البعض يفضل السكوت مراعاة لمصلحة تلك الحركات من مواجهة العدو المشترك (المشروع الصهيوني الأمريكي) فإن تقارير المقاومة العراقية تؤكد أنه لولا الدور الإيراني المتحالف مع الأمريكيان لتمكنت المقاومة العراقية من كسر هذا المشروع مبكراً، ولأعلنت أمريكا عن فشلها في العراق، وهذا بلا شك سترك تداعيات مفصلية في مستقبل تلك الحركات المقاومة بل والمنطقة والعالم كله.

تعاضم النفوذ الإيراني في العراق

تعاضم الدور الإيراني في العراق، يسير في أكثر من اتجاه، إذ أن الأجندة الإيرانية حافلة بالمشاريع المشاغبة، والتي تصب في مجملها في اتجاه البرنامج النووي، والمتبعون لسياسة إيران الخارجية لابد أن يلاحظوا أن أهم أسباب تعاضم نفوذها في العراق يأتي بالأساس من دعمها المعلن للأحزاب الشيعية العراقية، وهذا بحد ذاته هدف تأمل إيران في جني ثماره مستقبلاً، ودعمها غير المعلن للجماعات المسلحة التي تفجر وتفخخ السيارات والأجساد بالمدنيين، إذن ثمة فجوة أو ازدواجية في التعاطي الإيراني مع الشأن العراقي، وعلى المتخوفين من تزايد النفوذ الإيراني التفكير بجد في ردم هذه الفجوة خاصة إن ما يقال عن ضلوع الإيرانيين في العنف الطائفي المتبادل في العراق أصبح هناك ما يؤكد على أرض الواقع من معلومات يتداولها العراقيون فيما بينهم، والمعلومات الاستخباراتية الأمريكية، إضافة إلى اعترافات بعض الإرهابيين الذين اعتقلوا في إيران وتمت مسأومتهم على العمل في العراق لصالح إيران مقابل إطلاقهم وتخصيص أموال لهم.

من جهة أخرى استطاعت إيران أن تكون شبكة لاستخباراتها في العراق، وتوسيع قاعدتها من العملاء للتحكم بالشأن العراقي والعمل على إفشال أو عرقلة المشروع الأمريكي، هناك اتجاه آخر تتبعه إيران لزيادة نفوذها في العراق تساعد في ذلك دون قصد بعض الدول العربية التي تعلن باستمرار عن خوفها غير المبرر من ولاء شيعة العراق لإيران، والتشكيك بوطنيتهن وحتى بعروبتهن مما يساهم في دفع غالبية الشيعة إلى الحزن الإيراني وهذا ما تعمل إيران على استثماره جيداً من أجل استقطاب أكثر للشيعة إليها، وتساهم في تضخيم هذا القلق العربي بعض الأحزاب الشيعية التي تعمل ضمن أجندة إيرانية من خلال تصريحات ذات طابع طائفي لبعض قادتها، وتقديم مشاريع يشم منها رائحة انفصالية تزيد من المخاوف لدى بعض الدول المجاورة، إن هذه المشاريع والأفكار التي تتقدم بها هذه الأحزاب لا تمثل رأي الشارع العراقي وعلى الأخص الشيعي منه، ولا يخفى على المتتبع للشأن العراقي إن العنف الدائر في العراق يتم توظيفه من قبل هذه الأحزاب من خلال طرح نفسها كحامي للجماهير، وعلى هذه الجماهير أن تحتشد خلفها.

يبقى على الدول العربية التي تبدي خوفها أيضاً أن تبدي استعداداً أكبر في الساحة للحد من دوامة العنف الذي أتلّف العراق، كما عليها أن تمد جسوراً من الثقة مع الشيعة العراقيين، لأن التشكيك بولائهم للعراق وبعروبتهن يدفعهم أكثر إلى الانسلاخ عن المحيط العربي الذي هو امتدادهم الطبيعي، وأن يتم الفصل بين الأحزاب الشيعية وبين الشيعة كمكون أساسي من مكونات النسيج العراقي.

ثمة مسار آخر أكثر تطوراً يتبعه السياسيون الإيرانيون مؤخراً يتمثل في عرض خبراتهم في مجال التقنية النووية على الدول العربية وهذا المسار له

هدفان، الأول: هو محاولة لاستقطاب بعض الدول العربية إليها، للخروج من العزلة الدولية التي تعانيها السياسة الإيرانية على الرغم من معرفة إيران المسبقة بعدم تجاوب هذه الدول معها، وأيضاً محاولة إثبات حسن نية في إمكانية التعاون الإقليمي، الهدف الثاني: هو الإعلان عن ورقة جديدة تضاف إلى أوراقها في الصراع مع أمريكا لزيادة إرباكها في العراق، كما أن هذه الورقة ستصبح متداولة في الكونغرس الأمريكي لتوسيع الفجوة وتعميق الصراع بين الجمهوريين وبين الديمقراطيين وزيادة على ذلك أنها تبدو منتصرة أمام شعبها.

إذاً كيف يمكن وضع حد للتدخل الإيراني في العراق؟

تدرك أمريكا جيداً أن إيران في سباق مع الزمن، في انجاز مشروعها النووي، وإن كل ما تقوم به في العراق ما هو إلا محاولة لكسب الوقت، ومما لا شك فيه أنها تتجح في ذلك المسعى إلى حد كبير، وهو ما يجعل أمريكا في وضع حرج، ليس أمام أمريكا الآن سوى خيارين، من أجل إخماد دوامة العنف في العراق، والتفرغ إلى مشروعها في إعمار العراق كما تعلن دائماً:

الخيار الأول: هو ترك إيران تنفذ برنامجها النووي، وهو ما تريده إيران كهدف تعتبره مصيري، لكف يدها عن التدخل في العراق، وذلك أمر من الصعب على أمريكا الإقرار به.

الخيار الثاني: هو أن تطلق اليد العراقية في ضرب الجماعات المسلحة في العراق، بالطريقة التي تراها مناسبة مع توفير الدعم والإسناد اللازم لذلك، ومراقبة الحدود العراقية بشكل دقيق أو حتى إغلاقها، وطرد كل تمثيل دبلوماسي أو غير دبلوماسي لإيران من العراق، سيسهم ذلك في الحد من تسرب الإرهابيين والسلاح والذخيرة إلى العراق.

وأحسب أن الخيار الثاني مازال في المتناول وله مبرراته في الشارع العراقي خصوصاً أن ذلك ما يفكر فيه الكثير من العراقيين، وكان قد سبقهم إلى ذلك بعض ساستهم.

وأخيراً

فإذا كانت نتيجة هذه المواقف للجارة الكبرى إيران ستكون باتجاه تسليم العراق للمشروع الصهيوني الأمريكي أو انتزاع العراق من حضنه العربي لصالح الامبراطورية الإيرانية الكبرى أو تقاسم الكعكة، فلأمريكا النفط ولإيران الهوية فإن الخاسر الأكبر هو الأمة العربية والإسلامية.

إن المطلوب من الأمة اليوم هو أن لا تدس رأسها في الرمال بدوافع عاطفية أو مصلحة ضيقة، بل عليها أن تبحث عن الحقيقة كما هي لاتخاذ الموقف الصحيح، وربما تكون هذه المواقف أوراق ضغط مناسبة لإجبار الإيرانيين على التراجع والاصطلاح مع المشروع الكبير للأمة في حين أن السكوت واتخاذ المواقف الخجولة والمتردة قد يغري إيران بالاستمرار في طريقها هذا بحيث يصعب عليها فيما بعد مجرد التفكير بالتراجع أو التعديل.

حوار الأديان... ضرورة ولكن!

د. وصال نجيب العزاوي^(١)

رغم إقامة مؤتمرات عديدة تحت مسمى (حوار الأديان) فى السنوات الأخيرة بهدف الوصول إلى نتائج ملموسة وتحقيق تواصل حضاري وتعايش سلمي بين الغرب والعالم الإسلامي.. فإن هذا الحوار لم يحقق الأهداف المرجوة منه.

وهذا ما ظهر واضحاً بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١م وضرب أفغانستان والتربص بدول إسلامية أخرى والحملات المعادية التي تتصاعد ضد الإسلام في الغرب.

وظهرت دعوات تطالب بضرورة تطوير الخطاب الديني باعتباره مطلباً إسلامياً بهدف تحسين صورة الإسلام فى الغرب بشرط أن يكون التطوير والتحسين من داخل العالم الإسلامي، بالمقابل طالبوا الغربيين بمواقف أكثر

^(١) عميدة كلية العلوم السياسية/ جامعة النهريين سابقاً.

موضوعية وإنصافاً في التعامل مع الإسلام إذا كانوا بالفعل جادين في تحقيق حوار بناء مع العالم الإسلامي.

بينما يرى علماء الإسلام أن فشل حوار الأديان وعدم نجاحه في تغيير الصورة المتوارثة عن الإسلام في الغرب هو نتيجة طبيعية لعدم جدية الحوار وعدم الاعتماد على المنهج العلمي، واستغلال الجانب الغربي هذا الحوار لتحقيق أغراض سياسية، فضلاً عن أن من يشاركون من الجانب الإسلامي ليسوا على المستوى المطلوب من الإلمام بالثقافة وباللغة الأجنبية وبطبيعة الطرف الآخر وثقافته.. علاوة على وجود منظمات غربية صهيونية تحاول دائماً إفشال حوار الأديان.

وتحاول هذه الورقة المتواضعة أن تجيب على التساؤل التالي: ماذا يعنى الحوار وما جدواه؟... وكيف السبيل للتواصل؟.

أولاً: في معنى الحوار

ننظر في كلمة (حوار) ونستعين بالمعاجم في تحديد معناها، فنجد إنها من (الْحَوْرَ) وهو (الرجوع عن الشيء، وإلى الشيء)، و(حَارَ حَوَاراً) إلى الشيء (رجع عنه وإليه)، وما رجع إلى المرء حين يكلم آخر هو (حَوَار) (بفتح الحاء وكسرهما) و(محاورة وحوير ومحورة) أي (جواب)، وأحار عليه جوابه أي رده.. ويقال (سمعت حويرهما وحوارهما) والمحاورة هي المجاورة والتجاور هو التجاوب.. وهم يتحاورون أي يتراجعون في الكلام، والمحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

(الحوار) إذن (عملية) تتم بين اثنين أو أكثر.. وهي تتضمن حين تجرى بين اثنين (طرحاً) من أحدهما بتمثله الآخر و(يجيب عليه، فيحدث (تجاوب) يولد عند كل منهما (مراجعة) لما طرحه من كلام ومنطق حكم هذا الكلام)..

وقد تثمر هذه المراجعة طرْحاً ثانياً يتبعه تجاوب ومراجعة فنكون (مرادة في الكلام)، فهذه المرادة هي المحاورَة والحوار عند الأصبهاني صاحب (المفردات في غريب القرآن).. وقد ورد في القرآن الكريم الفعل المضارع (يحاوره) مرتين في سورة الكهف في قصة (صاحب الجنتين)، قال

تعالى: M: < = > ? @ A B C D E F G H I

J L^(١)، و(تجاوزكما) في سورة المجادلة، قال تعالى: M: ! " # \$ %

& ' () * + , - . | 0 1 2 3 L^(٢).

تتعدد أطراف (عملية) الحوار حين يجرى بين أكثر من اثنين فيتلقى (الطرح) أكثر من (جواب) وتتسع دائرة (التجاوب) و(المراجعة) و(المرادة) وتثمر طرُوحاً أخرى تصل بهذه الأطراف إلى أجوبة أخرى.. وقد تنتهي بهم إلى الاتفاق أو إلى اطمئنان كل منهم لما توصل إليه.

إذن الحوار هو (حديث) يتضمن (طرح) أفكار والطرح لغة الإلقاء بعيداً.. وطرح عليه مسألة يعني ألّقاها، ومنها اشتقت (الأطروحة) وهي المسألة التي تطرح، و(المطارحة) وعملية الحوار تشهد مطارحة أفكار، وهي تتضمن (محادثة)، لأن الحديث هو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في اليقظة أو المنام^(٣).

ونشير أخيراً إلى ما تتميز به كلمة (حوار) من جرس موسيقي يوحي بوجود مراجعة وتفاعل إيجابي.

(١) سورة الكهف/ الآية (٣٧).

(٢) سورة المجادلة/ الآية (١).

(٣) د. أحمد صدقي الجاني، الحوار.. الحوار ما أحوجنا إليه!، مجلة العربي، العدد (٣١٣) كانون الأول ١٩٨٤م، ص ٩٣-٩٤.

ثانياً: حوار الأديان: مطلب إسلامي^(١)

إن الحوار بين الأفراد أو المجموعات أو الأمم على مسائل دينية أو فكرية أو فلسفية يمثل ظاهرة قد يكون عمرها من عمر الإنسانية.. وإن الإسلام منذ بداية ظهوره يرحب بالحوار حيث كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يحاور المشركين والمنافقين في مكة، واليهود والمسيحيين في مرحلة العهد المدني.. والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) انطلقاً من الحوار كان له حوار مكتوب في شكل الرسائل التي أرسل بها إلى الملوك ورؤساء العالم على عصره يعرفهم فيها بنفسه باعتباره نبياً ومرسلاً.

والقرآن الكريم فيه من أمثلة كثيرة على الحوار بين الأنبياء وأقوامهم كما إن الحوار من الألفاظ القرآنية الموجودة في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى:

J I H G F E D C B A @ ? > = < ; : M

[M L K N O P Q R L R^(٢)، وفي مثل قوله تعالى: M]

.^(٣) L g f e d c b a ` _ ^] \

إذن الحوار ليس غريباً على الإسلام منذ بداية نزول الرسالة، وهو وسيلة من وسائل التعريف بالإسلام ونشر الدعوة.. وفي العصور التالية من عصر النبوة، ففي عصر الدولة الأموية والعباسية كان الحوار يعتبر وسيلة أيضاً لمخاطبة الآخر والاعتراف به وتقويم ما عنده.. وفي العصر الحديث ظهرت الدعوة إلى الحوار بطريقة أوسع سواء في شبه القارة الهندية أثناء الاحتلال

(١) ينظر لمزيد من التفاصيل ندوة (لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام)، صحيفة الخليج (الإماراتية) العدد (٨٣١٤)، ٢٢/٢/٢٠٠٢م، ص ١٤.

(٢) سورة آل عمران/ الآية (٦٤).

(٣) سورة آل عمران/ الآية (٦٥).

البريطاني أو في مصر خلال فترة الاحتلال وما تلاها، وظهرت حوارات على المستوى الرسمي في كل من مصر وليبيا والسودان والسعودية.

ثالثاً: ضوابط مطلوبة

تضمن القرآن الكريم سورتان كاملتان تجسدان طبيعة الحوار بين الإسلام والأديان الأخرى من حيث الأهداف والمقاصد ومن حيث المنهج والأسلوب..

فالأديان في نظر الإسلام أصلها واحد لقوله تعالى: O N M L K J M

| a ` _ ^] \ | Z Y X W V U T S R Q P

.^(١) L r q p o n m l k j i h g f e d c

فرسالات السماء كلها تدعو إلى التوحيد وتكريم الرسل واحترام الأخلاق الفاضلة والنهي عن الرذائل.. لذلك إذا كان حوار الأديان في جانب (العقيدة فلا حوار) لأن الحق واضح ونصوص القرآن واضحة، وإذا كان في جانب العبادات فهي مختلفة.. وإذا كان في جانب الأخلاق فهي معروفة لكل عاقل ولا تحتاج إلى حوار مثل الصدق والأمانة والوفاء وغيرها.. لكن نتيجة هذا الحوار وما يترتب عليه من قبول أو رفض لا يتوقف بالضرورة على طبيعة البرهان ولا أسلوب الحوار بقدر ما يتوقف على الطرف الآخر، وهل هو قابل للحق باحث عنه، قاصد إليه.. أم هو معاند مكابر، رافض للآخر مسبقاً، مقتنع بما تحت يديه من أنه الحق الذي لا مرية فيه وأن الآخر على ضلال وبهتان؟، وهذا هو مفصل الخطاب في هذه القضية.

والسؤال المطروح هنا: هل كل طرف يعترف بالآخر؟ أم أن المسلمين فقط هم الذين يقدرون للآخر قدره، وبالتالي يقدمون ما عندهم من حقائق

^(١) سورى الشورى/ الآية (١٣).

يقينية في أسلوب علمي؟.. لكن الطرف الآخر يتبنى مسبقاً موقف الرفض، وموقف الاستعلاء والعناد، فيكون بالتالي رافضاً لأي حق يقدم إليه، متعالياً على المحاور، وهذا من أخطر ما يسد أبواب الاقتناع.

إن الحوار بين الأديان الذي تمّ في القرن العشرين - وقد يأخذ مسميات مختلفة - لم يكن به الطرف المسلم يهدف إقناع الطرف الآخر (الغرب) أن يترك دينه ويعتق الإسلام.. وإنما فقط ليبين له أن الإسلام لا يرفض الآخر ولا يُكرهه على تغيير عقيدته، ويقدم له الحقيقة الإسلامية الناصعة التي جسدها القرآن الكريم في الآيتين التاليتين، قال تعالى: $M \text{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّسُلُ مِنَ الْغَيِّ } L^{(1)}$ ، وقال تعالى أيضاً مخاطباً غير المسلمين عموماً: $M < = > L^{(2)}$ ، فإن هاتين الحقيقتين توضحان للآخر أن مطلب الحوار هو حسن الجوار وحسن التعامل، وأن يعترف كل منا بالآخر، لا أن يتعالى عليه بما يملك من أدوات العصر ومستحدثاته ويجعل من تفوقه العلمي والتقني دليلاً على صدق ما معه، وكذب ما مع الآخر، وهذا بعيد عن المنهج العلمي.

رابعاً: صراع أم حوار

بعد ظهور فكرة صدام أو صراع الحضارات⁽³⁾ خلال العقدين الأخيرين اتجه العالم الإسلامي والعربي تحديداً والمصلحون في أوربا إلى المناداة بحوار الأديان وليس صراع الأديان وأنواع الثقافات المختلفة التي تسود

(1) سورة البقرة/ الآية (256).

(2) سورة الكافرون/ الآية (6).

(3) ينظر عن هذا المفهوم: صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات، بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، 1995م.

العالم، فبرز ما يسمى بحوار الحضارات وحوار الأديان وحوار الثقافات باختلاف وجهات النظر في تحديد مفهوم الثقافة والحضارة، فمنهم من يجعلها واحدة، باعتبار أن الثقافة هي الجانب الفكري والحضارة هي الجانب العملي الكلي، فنشطت حركة الحوار في أوروبا وأمريكا والعالم الإسلامي والعربي بحيث لا يكاد يخلو يوم من مقال أو ندوة أو مؤتمر يعقد للحوار سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي أو المستوى العلمي الأكاديمي في الجامعات^(١).. وقد عقدت عدة لجان للحوار بالمؤسسات الرسمية أو السياسية منها الأزهر والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والجامعة العربية، وقد تزايد الحديث عن التواصل الحضاري وحوار الحضارات بعد أحداث ١١/ أيلول ورغم هذه الحوارات لم نلاحظ أي تأثير يذكر على القرار السياسي لصناع القرار في أمريكا والغرب، ولم تستطع هذه الحوارات على كثرتها أن تعدل من وضع الصورة عن الإسلام في الغرب أو تقلل من حدة الإعلام الغربي وشراسته ضد المسلمين.. فما زالت حملة التشويه قوية وما زال الإسلام بالنسبة للغرب يقف وراء القضبان ويقاضى، وغالباً ما تصدر ضده الأحكام بدون إنصاف أو حتى بدون تفكير في طبيعة الحكم.

والسؤال المطروح: لماذا فشلت مؤتمرات حوار الأديان في تغيير مواقف الغرب من الإسلام؟ وهل نتوقف عند هذا الحد؟... الإجابة: أن المسلم ينبغي ألا يتوقف عن الحوار، فالدعوة في الأساس بلاغ وتوصيل رسالة.

والحوار من الوسائل الفعالة في توصيل رسالة الإسلام، وهناك فراغ فكري في أمريكا والغرب ينبغي على المسلمين المؤهلين دينياً وفكرياً أن

(١) ينظر حول ذلك: فخري لبيب (محرر)، صراع الحضارات أم حوار الثقافات: أوراق ومداخلات المؤتمر القومي الذي نظّمته منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، القاهرة: منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية، ١٩٩٧م.

يملؤه، فلا يجب أن نكف عن الحوار مهما كانت نتائجه لأن الإسلام يرفض اليأس من إصلاح النفس البشرية.

أما أسباب عدم التوصل إلى نتائج مطمئنة ومشجعة في مسألة حوار الأديان فإنها تتمثل في:

١ - إن ثوابت السياسة الغربية والأمريكية لا تزال قلقة تجاه الإسلام، وبعيدة إلى حد كبير عن الإنصاف في التعامل مع المسلمين وفي النظر إلى قضاياهم السياسية العادلة.

٢ - تسميم الرأي العام الغربي بسبب التسلط الإعلامي غير المنصف أو العدائي المسيطر على عقول الغربيين.

٣ - وجود منظمات لها تاريخ طويل وخبرات عميقة وتمويلات هائلة داخل المجتمعات الغربية تلون القرار والإعلام الغربي باللون الذي تريده، ونعني المنظمات الصهيونية تحديداً.

٤ - عدم كفاية ما نقوم به نحن المسلمين من جهود في صد هذا الإعلام وتوضيح صورة الإسلام.

٥ - ليس عندنا مشروع قومي إسلامي يناسب تلك الحملات الشرسة والأجهزة المدعومة بأحدث أدوات التكنولوجيا والتمويل.

٦ - إن ما جرى خلال السنوات الأخيرة من لقاءات حوار الأديان لا تمثل القواعد الأساسية التي اتبعها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مسألة الحوار.. هذه القواعد يتصل أولها بالعقيدة وثانيها يتصل بالتعاون.. فيما يتصل بالعقيدة ومحاولة الوصول إلى الحق بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) حينما ناقش وفد نصارى نجران ونزل فيها: $y \ x \ w \ v \ M$

z { | | ~ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ^(١)، كما ذكر القرآن حوارات اليهود والوثنية وكل أصحاب العقائد، واستمر المسلمون في هذه الحوارات، وألف العلماء كتباً كثيرة في ذلك، أشهرها قدماً (الفصل في الملل والأهواء والنحل) للإمام ابن حزم.. أما فيما يتعلق بالجانب الثاني وهو التعاون من أجل نصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم ورد العدوان وإعطاء كل ذي حق حقه فهذا أيضاً بدأ على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما حضر حلف الفضول قبل البعثة في دار عبد الله بن جدعان فاجتمع الناس من أجل نصرة المظلوم وتحديث الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك فيما بعد فقال "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت" ^(٢)، فتلك رسالتنا وبضاعتنا، ولكن ما يجري حالياً لا يمثل أي جانب من هذين الجانبين فهو لا يبحث في العقائد ولا ينصر المظلوم، بل أصبحت اجتماعات للعرض والإعلام فقط.. بل إنها أصبحت مكيدة للإسلام والمسلمين ويتخذها الطرف الآخر وسيلة للتغلغل في الأوساط الإسلامية وطرح أفكاره والسيطرة بأساليبه الخبيثة، ولم يستفد المسلمون شيئاً من هذا الحوار إطلاقاً، حتى في القضايا الإسلامية المطروحة على الساحة العالمية لم نسمع فيها كلمة حق من جانب هؤلاء المحاورين.

ونذكر على سبيل المثال أن (بابا الفاتيكان) سبق وأن اعتذر لليهود عن المذابح التي أقامها هتلر والغرب أثناء الحرب العالمية الثانية، في نفس الوقت رفض هذا البابا الاعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية.

(١) سورة آل عمران/ الآية (٥٩).

(٢) رواه البخاري في "الأدب المفرد" (٥٦٧) وابن حبان (٢٠٦٢).

خامساً: ما العمل؟ وما جدوى الحوار؟

إن الحوار بين المسلمين وبين الغرب لم ولن يثمر نتائج طيبة طالما أن مقومات هذا الحوار غائبة، والتي تتمثل في المشاركة في الحوار والظروف التي يخضع لها كل حوار، فضلاً عن الجو العدائي المتواصل في الغرب والذي تغذيه وسائل الإعلام الغربية بصورة مستمرة.. وقد قرأنا لكبار المسؤولين الأوروبيين والأمريكيين من يحرض على الإسلام والمسلمين ويحيي نعرات الحروب الصليبية القديمة.. إذن ما العمل؟.

١ - الحقيقة التي يجب أن ندركها جيداً هي إن تحسين صورة الإسلام في الغرب يبدأ من داخل العالم الإسلامي وهذا أمر لا خلاف عليه، ويجب أن نعترف بشجاعة بأن المفاهيم الخاطئة التي لا تزال عالقة بأذهان بعض المسلمين تستغل استغلالاً سيئاً من جانب الغرب وتتخذ وسيلة لتشويه صورة الإسلام وصد الغربيين عنه أو دفعهم لاتخاذ مواقف عدائية تجاهه.

لكن هذا لا يعفي الغرب بكل مؤسساته الإعلامية والسياسية والثقافية والعلمية والدينية من المسؤولية، حيث لا يجوز أن نتخذ من سلوكيات بعض الأفراد أو الجماعات وسيلة لتشويه صورة دين سماوي خاتم، فالحكم على الإسلام يكون من خلال تشريعاته وتعاليمه الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم).. من هنا فإن الغرب مطالب بإثبات حسن النية في التعامل مع الإسلام، وهذا لن يتحقق إلا من خلال جهود ملموسة لتصحيح المعلومات والمفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتي يتوارثها الغربيون جيلاً بعد جيل، وتعد عقبة حقيقية في تحقيق تفاهم حقيقي بين الغرب والعالم الإسلامي.

٢ - يجب أن يغير الغرب استراتيجيته في التعامل مع الإسلام وأن يتخلى عن معتقداته السياسية الخاطئة والتي تصور له الإسلام على إنه العدو البديل

للشيوعية، فالإسلام دين وسطية واعتدال ورحمة وتسامح وهو دين يدعو إلى التعاون والتواصل مع الآخرين.

٣ - إن الإرهاب الذي يخشاه الغرب ويخشاه المسلمون أيضاً لعلقة له بالإسلام من قريب ولا بعيد إلا في أذهان المتعصبين والعنصريين الغربيين، لذلك يجب أن يتوقف الإعلام الغربي عن ترديد اصطلاح (الإرهاب الإسلامي).. والحقيقة تقال أن ما يحدث في العراق وفلسطين وأفغانستان من عدوان وقتل للأبرياء هو الإرهاب بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. وهو مرفوض ومدان من كل الشرائع السماوية.

٤ - وقبل ذلك كله، ضرورة مراجعة وتطوير الخطاب الديني، فتطويره من أبرز مطالب علماء ومفكري الأمة منذ سنوات طويلة.. فالأمر ليس مرتبطاً بأحداث الحادي عشر من أيلول في أمريكا وتداعياتها التي ضاعفت من حدة التوتر في علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، فتحسين الخطاب الديني (إسلامي أو مسيحي) مطلب داخلي قبل أن يكون مطلباً خارجياً؛ لأن إزالة التوتر والتعصب المطلوب من المسيحيين كما هو مطلوب من المسلمين... وأخيراً وليس آخراً نقول إن بحث وسائل تطوير الخطاب الإسلامي لا تعني بأي حال من الأحوال إضفاء الشرعية على مواقف أو سلوكيات مخالفة، ولا تعني إطلاقاً التخلي عن الثوابت الإسلامية التي تفرض على المسلمين القيام بواجب الدعوة إلى الإسلام في كل الظروف والأحوال وبذل النفس والمال دفاعاً عن الدين والوطن والكرامة وكما حددها لنا رب العزة والمنصوص عليها في قوله سبحانه:
$$M: v w x y z \{ | \sim \text{بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} L^{(1)}.$$

(١) سورة النحل/ الآية (١٢٥).

قراءة في القضية العراقية المعاصرة

من وجهة نظر رئيس الوزراء الماليزي الأسبق محاضير محمد

د. أحمد الجنابي^(١)

البطاقة الشخصية لمحاضير محمد

من مواليد عام ١٩٢٥م، انضم إلى منظمة الملايو الوطنية المتحدة عام ١٩٤٦م، وقام بدراسة الشؤون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٧م، ودرس الطب وتخرج طبيباً في عام ١٩٧٤م، ودرس - أيضاً - الصحافة بالمراسلة، بدأ حياته المهنية كضابط طبيب بسلاح الخدمات الطبية، وبقي يمارس عمله في عيادته الخاصة في الفترة بين عام ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٢م، ليشغل بعد ذلك منصب رئيس مجلس التعليم العالي الأول ثم رئيس مجلس الجامعة الوطنية، وحول العمل السياسي فقد بدأ محاضير مشواره بمنصب مندوب ماليزيا بالأمم المتحدة ١٩٦٣م، ثم عمل بعد ذلك عضو برلمان عن منطقته في الفترة بين عام ١٩٦٤م، وحتى عام ١٩٦٩م، ليشغل منصب عضو المجلس الأعلى لتنظيم اتحاد الملايو الوطني إلا أنه طُرد من التنظيم لخرق مبادئ الحزب؛ ولكنه عاد للحياة السياسية بقوة حيث أصبح عضواً في مجلس الشيوخ في عام ١٩٧٣م، ثم انتخب محاضير

(١) باحث عراقي أكاديمي في جامعة ملايا - ماليزيا.

عضواً بالبرلمان مرة أخرى في عام ١٩٧٤م، وأُعيد انتخابه في عام ١٩٧٨م، وشغل منصب وزير التربية والتعليم بالإضافة إلى منصبه كنائب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني، ثم شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير التجارة والصناعة خلال الفترة (١٩٧٨ - ١٩٨١م)، وبنجح محاضير في الفوز بمنصب رئيس تنظيم اتحاد الملايو الوطني ليشغل منصب رئيس وزراء ماليزيا الرابع في المدة من ١٩٨١م - ٢٠٠٣م، وخلالها وضع خطة لبلاده وسار عليها لتصبح بحلول عام ٢٠٢٠م بلداً على درجة عالية من التقدم، يعد محاضير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق من أعظم القادة السياسيين والاقتصاديين في آسيا، استطاع تغيير وجه ماليزيا وتمكن من أن ينهض بها تنموياً ويجعلها في مصاف الدول الاقتصادية المتقدمة، حيث تمكن من الانتقال بها من مجرد دولة زراعية تعتمد على تصدير السلع البسيطة إلى دولة صناعية متقدمة، فأصبح الفكر التنموي للزعيم الماليزي محاضير محمد مثلاً يحتذى به العديد من القادة والسياسيين والاقتصاديين في جميع أنحاء العالم، جاء في وصفه: (الرجل العاقل في زمن الجنون، ناجح بلا حدود، قصة المعجزة الماليزية، النمر الآسيوي، رجل الفكر والإنجاز).

مواقفه من القضية العراقية المعاصرة

حضيت قضية العراق المعاصرة في الفكر المحاضيري باهتمام بالغ، فقد واكب هذه القضية سياسياً وبشكل دائم، وهذا الاهتمام إن دلَّ على شيء فإنما يدل على عالميته البشرية ورؤيته الإسلامية الشمولية، وطيب علاقاته بهذا البلد العربي المسلم وأهله، ولم يغب عن باله من أن هذه القضية بالذات قضية مصيرية ولها علاقات بالوضع السياسي والاقتصادي في المنطقة خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً، فتبرع مدافعاً عن العراق ومحامياً له في مواجهة

التحديات الخارجية التي تعصف به، ولم ينفك ذكر العراق من على لسانه في المحافل الدولية والإقليمية والتصريحات الرسمية بشأنه، وتقديم الحلول والرؤى المساعدة والمساندة لهذا البلد للخروج من أزماته، وهذا كله يحسب لهذا الرجل في وقت سكتت فيه أفواه وألجمت أصوات حول هذا البلد وقضاياها.

ومما يميز موقفه موضوع الديمومة فيه، فهو على مدى سنوات طويلة في اللهجة الشديدة نفسها في انتقاد الحرب وما سبقها من حصار وما تبعها من ويلات، ولذلك وصفه بعض المحللين بأنه: (كان الضمير العالمي المعبر عن القضية العراقية)^(١)، ولكي نستوعب هذا الموضوع لأبد من تقسيمه على محطات بحسب الأحداث في قضية العراق المعاصرة لنقرأ المواقف على ضوءها، وبالتالي نتضح لدينا الرؤية الكاملة لهذا الموضوع تحديداً.

أولاً: موقفه قبل الحرب على العراق

موقفه من الحصار قبل الحرب

كان الدكتور محاضير من المتابعين لتداعيات الحرب على العراق فرأى أنّ هذه الحرب المسبوبة بحصار ظالم غير متكافئة، ووصف الأمم المتحدة بـ(العمى) عما يحدث في العراق في استمرار قوة عظمى واحدة في صراع طويل ضد هذا البلد، وإطلاق القذائف الصاروخية على أهداف بعيدة داخل العراق لكي تركز القيادة العراقية دون مراعاة لمعاناة الشعب العراقي

(١) الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية، عبد الرحيم عبد الواحد، ماليزيا، ط/ الأولى

المحاصر^(١)، فاستنكر العقوبات الاقتصادية والحصار المفروض على (شعب) العراق والقيود على المدنيين والأطفال والكبار والمرضى والنساء طوال سنوات من المعاناة بحجة أن قائد الشعب غير محبوب لدى الغرب، فركز حديثه على أذية هذا الشعب وأنه هو المستهدف واستدل على ذلك متعجباً بأن الحملة العسكرية كان بمقدورها أن تأسر زعيم العراق وتعتقله لكنها لم تفعل^(٢)!

توقعاته للحرب وموقفه منها

كان الدكتور محاضير من المتوقعين لهذه الحرب قبل وقوعها حيث جاء في كلمته التي ألقاها بالجلسة الغير عادية للجنة الإسلامية في الدوحة بتاريخ ٥ / مارس - آذار / ٢٠٠٣ م فقال: (إنَّ الهجوم على العراق واقع لا محالة بموافقة أو دون موافقة الأمم المتحدة ما لم تحدث معجزة)^(٣)، ودعا القادة العرب والمسلمين قائلاً: (علينا نحن قادة منظمة المؤتمر الإسلامي أن نساعد على حدوث هذه المعجزة بوقوفنا ضد الحرب على العراق)^(٤).

مناقشته لمبررات الحرب

ناقش محاضير مبررات الغزو الأمريكي لهذا البلد، فإذا كانت الحجة اجتياح العراق للكويت فهو لا يتفق مع مبررات العراق وقال: (ربما يكون للعراق

(١) موسوعة الدكتور محاضير بن محمد - رئيس وزراء ماليزيا السابق -، دار الفكر، كوالالمبور، ط ١/ الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م : ٨ / ١٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٨٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٠ / ٩.

(٤) المصدر نفسه.

إدعاء تاريخي، لكن بالتأكيد على العراق أن يقبل بالكويت دولة مستقلة^(١)، وفي الوقت نفسه لا يتفق - أيضاً - مع مبرر تدخل أمريكا وحلفائها في العراق بسبب هذه الحجة، وضرب مثلاً في اتخاذ الغرب لنفسه ألف عذر وعذر في عدم تدخله في قضية الصرب عندما قتلوا المسلمين، ولم يوقفوا ضدهم، ولم يتخذوا اجراءات بحقهم، فكذلك عليهم التعامل مع هذه القضية من باب العدالة الدولية إزاء مواقفهم؛ إلا أنه حل هذا التدخل بأنه: (حماية للنفط وليس حماية للكويتيين)^(٢)، ووصف تصرف الغرب بأنه: (تدخل في شؤون بلد مستقل)^(٣).

وإذا كانت الحجة في الحرب على العراق هي نشاطات العراق (الإجرامية) - بحسب تعبيرهم -، فقد كشف محاضير في تساؤله عن سبب عدم نشر استقالة ضباط الأمم المتحدة المكلفين بمراقبة نشاطات العراق وعدم تغطيتها إعلامياً بالشكل المطلوب لأولئك النفر الذين أدانوا البربرية ضد ذلك البلد^(٤).

وإذا كانت الحجة أحداث الحادي عشر من سبتمبر فرأى أن هذا معيار مزدوج للغرب فإذا ذكروا لنا من مات أو تضرر في نيويورك فربط لهم بين من مات جوعاً في العراق أو من نقص الرعاية الطبية^(٥). واعتبر موضوع أسلحة الدمار الشامل أكذوبة أمريكية من أجل تبرير شن حرب على العراق، ومع الافتقار لدليل والاستناد إلى شبهات كان عليهم أن

(١) موسوعة الدكتور محاضير بن محمد - رئيس وزراء ماليزيا السابق -، دار الفكر، كوالالمبور، ط/الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م: ٨٦ / ١.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٦ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ٣٥ / ٣.

(٤) المصدر نفسه: ٣١٦ / ١.

(٥) المصدر نفسه: ٣١ / ١٠.

يعطوا الفرصة للدكتور هانز بليكس^(١) للقيام بتحقيق شامل، ودعا الشعب العراقي إلى تحرك قانوني ضد الولايات المتحدة عبر الأمم المتحدة أو أي منظمة دولية لمحاكمتهم عن أضرارهم بسبب هذه الأكذوبة^(٢).

واشتد نكير محاضير الحرب على العراق لأنها جاءت من أناس يتحدثون دوماً عن حقوق الإنسان هذه من وجهة نظر إنسانية، ومن وجهة نظر دينية اعتبر محاضير أن سياسة أمريكا في حربها على العراق إنما تعد حرباً على المسلمين^(٣).

وأكد موضوع الحرب على المسلمين في استهداف العراق باستدلاله على موضوع أسلحة الدمار الشامل الأنفة الذكر، فرأى أن السياسة الغربية تكيل بمكيالين في هذا الموضوع فالإتهام موجه إلى كوريا الشمالية والعراق، فاستغرب من الضغط الدولي والتحريك العسكري على العراق فقط!، مع إن كوريا وبتصريحات صدرت من بيونج يانج أنها تمتلك أسلحة دمار شامل؛ لكن لم تكن ردود الأفعال حولها مثلما الذي جرى في العراق؛ بل لم يتعد الأمر سوى تحذيرات لها، فلماذا العراق هكذا إذن؟^(٤).

وكل هذه المبررات للغزو وغيرها والحجج التي ساققتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لضرب العراق كانت من الهشاشة بمكان عند محاضير محمد حتى أنه توصل إلى فناعة مفادها بقوله: (لقد أثبتت - أمريكا وبريطانيا - أنهم مستعدون لاختراع مزاعم كاذبة من أجل شن الحرب وقتل الأطفال والشيوخ والمرضى التي في نظرهم مجرد أضرار جانبية...

(١) الرئيس السابق لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة.

(٢) سفير عربيات في: ٤ / ١٠ / ٢٠٠٣م.

(٣) انظر: الدكتور محاضير بن محمد بعيون عربية وإسلامية : ١٣٧.

(٤) انظر: المصدر نفسه.

فاليوم يجتاحون بلداً لأنهم يرون أنه غير ديمقراطي، وهل فرض الديمقراطية بالغزو أمر ديمقراطي^(١).

رؤيته لما بعد الحرب

كانت نظريته صائبة جداً في رؤيته أن الحرب على العراق من المحتمل أن تزيد الموقف في الشرق الأوسط سوءاً، وكذلك مساهمة هذه القضية في مشكلات الإرهاب في العالم^(٢)، ومن رؤية محاضيرية اقتصادية رأى أن هذه الحرب ستفرز آثاراً سلبية على الاقتصاد العالمي - وهذا ما حدث فعلاً - وأن هذه الحرب ستزيد من غضب المسلمين وستضاعف من أعداد المتطوعين في المنظمات التي يسمونها (إرهابية)، ورأى أن وقوع الحرب يعد تكريساً لشيعة الغاب وتجاوز الموائيق الدولية كافة، وستوفر هذه الحرب الفرص لدول أخرى في أن تتبع النموذج الأمريكي؛ الأمر الذي سيفقد العالم بسببه الأمان، وهذه الحرب في نظر محاضر ستضعف ثقة العالم الإسلامي بالأمم المتحدة بعد عجزهم عن حماية العراق ومنع الحرب عليه^(٣).

ثانياً: مواقفه بعد الحرب على العراق

رأيه في السياسة الأمريكية في العراق

عن التدخلات السياسية لأمريكا وبريطانيا في العراق انتقد محاضر هذه التصرفات وقال: (لو كانت هاتان الدولتان تؤمنان حقاً بالديمقراطية لسمحتا للعراقيين بتشكيل حكومتهم بأي طريقة تتراءى لهم)^(٤) مؤكداً إذا استلزم التدخل في الشأن العراقي الداخلي فيجب أن يكون ذلك عن طريق الأمم

(١) انظر: الدكتور محاضر بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٣.

(٢) موسوعة الدكتور محاضر: ١٠ / ١١.

(٣) انظر: الدكتور محاضر بن محمد بعيون عربية وإسلامية: ١٤٤.

(٤) موقع أنباء الإخباري، الإثنين: ١٨ / آب - أغسطس / ٢٠٠٣م.

المتحدة ، ولهذا قال : (لن نشارك في أي شيء يجري في العراق دون أن تجيزه الأمم المتحدة)^(١) بدليل أن بلده ماليزيا لن تبحث إرسال قوات في أي مهمة لحفظ السلام بالعراق ما لم تقر الأمم المتحدة مثل هذه الخطوة^(٢).

ونظر إلى الانتخابات والحكومة المنبثقة عنها في ظل الاحتلال بأنها لن تلقى قبول الشعب العراقي، لأنها قوة مؤيدة للأمريكيين، واتهم الأمريكيين بعدم فهم الشعب العراقي، واستبعد من أجل ذلك استقرار الأوضاع بعد الانتخابات، بل وتوقع زيادة الأمر سوءاً^(٣).

ولم يرَ في إرسال المزيد من الجنود الأمريكيين حلاً للمشكلة العراقية وقال عنهم: (سيذهبون إلى العراق وسيقتل العديد منهم ويعودون في أكفان إلى ديارهم، وحين يرى الأمريكيون هذه الأكفان، سيفهمون ما معنى الحرب)^(٤).

موقفه من المقاومة العراقية

أشاد الدكتور محاضير محمد بالمقاومة في العراق، معتبراً أن عودة الكثير من الجنود في أكفان إلى الولايات المتحدة: (سيساعد الأمريكيين على تغيير رأيهم بشأن الحرب)، وقال بمناسبة إطلاق محكمة جرائم حرب - بديلة - عن محكمة لاهاي^(٥): (امضوا قدماً في مقاومتكم، واحرصوا على أن يدفع الأمريكيون غالياً ثمن مغامرتهم)^(٦).

(١) موقع أنباء الإخباري، الإثنين: ١٨ / آب - أغسطس / ٢٠٠٣ م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) موقف محاضير من إنشاء المحكمة غير الرسمية لجرائم الحرب للتركيز على الضحايا في العراق وغيره من البلدان؛ لأنه يعد المحكمة الدولية الموجودة في لاهاي هي هيئة منحازة، وأوضح أن المحكمة لن يكون

وتوقع استمرار أعمال المقاومة في العراق ضد قوات الاحتلال الأمريكي وعدم استقرار الوضع في هذا البلد بالرغم من المشاريع السياسية مثل الانتخابات والدستور وغيرهما واستشهد على ذلك بمدينة (الفلوجة) وضربها مثلاً فقال: (إن القوات الأمريكية أرادت أن تظهر عبر الهجوم على الفلوجة أنها قادرة على الحل بالقوة العسكرية وأن "المتمردين" غادروا الفلوجة قبل اقتحام القوات الأمريكية للمدينة لمواصلة العمل في أماكن أخرى وأنهم قد يعودون مجدداً إلى الفلوجة)^(١).

وتوجه برسالة إلى المقاومة العراقية جاء فيها: (أنا أهنئ المقاومة العراقية، تابعوا نضالكم فقد سبق أن نجحتم - مشيراً إلى أن المسؤولين الإسبان والإيطاليين الذين ساندوا الحرب على العراق سقطوا في الانتخابات - وأن بوش وبلير خسرا شعبيتهما) وهذا نجاح سياسي في رأيه، وتابع قائلاً: (المقاومة العراقية أثبتت أنه من غير السهل أبداً اجتياح العراق والسيطرة على الوضع... وإذا كانت الولايات المتحدة تعتقد أنها ستسيطر على العراق وتستخدمه كقاعدة لتهديد الدول في محيط الخليج... وعدم بيع النفط إلى الصين، فإن المقاومة العراقية أثبتت أن الأمريكيين على خطأ)^(٢).

وقد دافعت ماليزيا عن رئيس وزرائها السابق محاضير بعد رسالته وموقفه من المقاومة في العراق من باب حقه في التعبير عن آرائه، جاء ذلك

لديها أي سلطة قانونية ولا تلقى دعم أي حكومة، مؤكداً أن ممارسات مرتكبي الجرائم ستكتب في سجلات التاريخ.

(١) برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال ١٤٢٥ هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) برنامج: بلا حدود، قناة الجزيرة القطرية، الأربعاء: ٢٧ شوال ١٤٢٥ هـ الموافق: ٩ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

على لسان وزير الخارجية الماليزي سيد حميد البار الذي قال إن ماليزيا: (بلد حرّ وديموقراطي ومن الجيد جداً أن نرى كيف تمارس الحرية)^(١).

ثالثاً: مواقفهم حول تداعيات الحرب على العراق

مقاطعة الشركات التي ساهمت في الحرب

انتقد محاضير موقف بلده وخطوة حكومته بالسماح لشركة "هاليرتون"^(٢) بالعمل في ماليزيا قائلاً: (إن ماليزيا ليست بحاجة لأموال مضرجة بالدماء)^(٣)، وتساءل ما إذا فقد الماليزيون الصفات الإنسانية ليسمحوا لمجرمي الحرب هؤلاء بالقدوم والازدهار على حساب اقتصاد البلاد، وكشف محاضير عن خبايا هذه الشركة التي قامت بجمع مليارات الدولارات بشكل أرباح من حرب العراق^(٤)، واستدل على ذلك بحسابات اقتصادية حيث ذكر أن قيمة سهم "هاليرتون" قفزت من عشرة دولارات قبل الحرب على العراق إلى قرابة (٤٦) دولاراً بعد أن ضمنت الشركة عدة عقود في العراق ناهزت قيمتها (٢٠) مليار دولار^(٥).

دعا الدكتور محاضير من قبل دول العالم إلى وقف استخدام الدولار الأمريكي في التبادل التجاري وذلك للضغط على حكومة واشنطن، وقدم البديل باليورو أو الدينار الذهب الذي هو واحد من مشاريعه الاقتصادية^(٦).

(١) مفكرة الإسلام: الخميس، ٢٠ محرم ١٤٢٨هـ الموافق: ٨-٢-٢٠٠٧م.

(٢) شركة الخدمات النفطية العملاقة، ترأسها في فترة من الفترات نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني.

(٣) وكالة الأخبار الإسلامية - نبأ.

(٤) انظر: المصدر نفسه.

(٥) انظر: المصدر نفسه.

(٦) انظر: (الجزيرة) <http://www.aljazeeraatalk.net>

دعوته إلى تغريم أمريكا عما فعلته في العراق

حثّ محاضير العراقيين على جعل الولايات المتحدة تدفع ثمناً باهظاً جداً؛ وذلك غرامة لها بسبب احتلال العراق، جاء ذلك في إعلانه عن: (محكمة تجريم الحرب)^(١) غير الرسمية التي ستجري محاكمات استناداً إلى شكاوى يرفعها ضحايا الحروب ضد قادة عالميين أبرزهم الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير.

وتوقع أن يكون معظم أصحاب الشكاوى ضحايا النزاعات في فلسطين والعراق وأفغانستان، وستكون مهمة المحكمة في المرحلة الأولى دراسة الشكاوى التي ستتلقاها من لجنة خاصة يترأسها محاضير نفسه^(٢).

وقال محاضير في كلمة أمام أكثر من (١٠٠٠) ناشط ضد الحرب جاءوا من مختلف أنحاء العالم في العاصمة الماليزية كوالالمبور: (نحن في اللجنة ننظر إلى هذه الشكاوى باعتبارها مآسي إنسانية، ليست محصورة بعرق أو دين أو عقيدة معينة، ونأمل أن نحقق شيئاً من خلال تخفيف معاناة أولئك العديدين الذين تألموا في العراق وفلسطين وأفغانستان وأماكن أخرى)^(٣).

مقارنته بين بوش وبلير وبين صدام حسين:

قارن الدكتور محاضير بين شخصيات متنازعة وهي بوش وبلير من جهة وبين صدام حسين من جهة أخرى فرأى في موازناته: (إن الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير مجرمي حرب وعلى أيديهما دم عراقي أكثر من الدم على أيدي صدام حسين)، وشنّ محاضير

(١) انظر: موقع الإسلام اليوم، الخميس: ٢١ محرم ١٤٢٨ هـ الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧ م.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

هجوماً على بوش وبلير في مؤسسة السلام الماليزية التي أسسها، وقال: (إن بوش يتعين عليه أن يواجه نفس العدالة الزائفة التي واجهها صدام).

رسالته إلى الرئيس الأمريكي الجديد (أوباما):

وجه الدكتور محاضير رسالة مفتوحة إلى الرئيس الأمريكي الجديد أوباما، حدد فيها مطالبه التي هي عبارة عن أولويات العمل في الإدارة الأمريكية وهي كالآتي^(١):

أولاً: توقفوا عن قتل الشعوب، الولايات المتحدة ومن أجل تحقيق أهدافها مولعة جداً بقتل الشعوب، أنتم تسمونها حرب؛ لكن حروبكم اليوم ليست بين جيوش مدربة تقاتل وتقتل بعضها؛ لكنها قتل للشعوب المدنية البريئة وبمئات الآلاف، بلدان بأكملها سيتم تدميرها، الحرب أصلاً هي طريقة رجال الكهوف للتعامل مع مشكلة، ولهذا أوقف تسليح جيوشكم والتخطيط لحروب مستقبلية.

ثانياً: أوقف الدعم العشوائي للقتلة الإسرائيليين بأموالكم وأسلحتكم، فالتأثرات والقنابل التي تقتل الناس في غزة هي منكم.

ثالثاً: أوقف فرض العقوبات ضد الدول، في حين هي لا تقدر أن تفعل المثل ضد بلدكم، عقوباتكم على العراق قتلت نصف مليون طفل بحرمانهم من الغذاء والدواء أو بولادتهم مشوهين، ماذا حققت من خلال هذه القسوة؟، لا شيء غير كراهية الضحايا، وأصحاب التفكير السليم لكم.

رابعاً: أوقف علماءكم وباحثيكم من اختراع أسلحة جديدة أكثر شيطانية لقتل المزيد من البشر بكفاءة أكبر.

(١) انظر: نص الرسالة في هذا الرابط:

www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=11584

خامساً: أوقف صناعاتكم الحربيين من تصنيع هذه الأسلحة وبيعها لجيوش العالم، فالمال الذي تربحونه منها ملوث بالدم، وهذا ضد تعاليم المسيحية.

سادساً: توقفوا عن نشر الديمقراطية إلى جميع أقطار العالم، الديمقراطية ربما تصلح للولايات المتحدة؛ لكنها ليست صالحة دائماً مع جميع الشعوب، ولا تقتلوا الناس لأنهم غير ديمقراطيين، فحملتكم الصليبية لنشر الديمقراطية بين الشعوب قتلت منهم ما لم تفعله حكوماتهم الاستبدادية التي أطحت بها، ورغم هذا فأنتم لم تتجحوا في نشر الديمقراطية.

سابعاً: أوقف الكازينوهات التي تسمونها (مؤسسات مالية) وتوقفوا عن فتح صناديق الاحتياط ومشتقاتها وتداول العملات، وأوقفوا البنوك عن إقراض المليارات من العملة التي لا غطاء لها، ونظموا وأشرفوا على البنوك واسجنوا الأوغاد الذين يجنون الأرباح من استغلال النظام المصرفي.

ثامناً: وقع على بروتوكول كيوتو^(١) وبقيّة الاتفاقيات الدولية.

تاسعاً: أظهر الاحترام للأمم المتحدة، وختمها بقوله: (لو تمكنت من فعل القليل مما اقترحتك عليك، فسيذكرك العالم كقائد عظيم، عندها ستعود الولايات المتحدة من جديد الأمة التي تحظى بأكبر الإعجاب في العالم، كما تتمكن سفاراتكم من خفض أسيجتها والأسلاك الشائكة المكهربة المحيطة بها، اسمح لي أن أتمنى لكم سنة جديدة سعيدة ورئاسة عظيمة)^(٢).

(١) اتفاق كيوتو يمثل عولمة الشأن البيئي العالمي، وخلق الآليات اللازمة لتنفيذه، ويمثل هذا البروتوكول أيضاً الخطوة التنفيذية الأولى لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ، وعلى العكس من ذلك ترى الولايات المتحدة الأمريكية أن الاتفاق ظالم لها، وغير محقق لمصالحها، دعا الرئيس الأمريكي جورج بوش - الابن - إلى معارضة تصديق الولايات المتحدة على الاتفاق، فالإدارة الأمريكية تعارض البروتوكول - دفاعاً عن مصالح رجال الأعمال -.

(٢) انظر: المصدر السابق.

ثقافة المقاومة عند الشعب العراقي بين احتلالين

خالد القيسي^(١)

الثقافة هي روح الأمة وعنوان هويتها، وهي من الركائز الأساس في بناء الأمم ونهوضها، فلكل أمة ثقافة تستمدّ منها عناصرها ومقوماتها وخصائصها، وتصطبغ بصبغتها، فتنسب إليها، وكل مجتمع له ثقافته التي يتسم بها، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها.

واستعملت الثقافة في العصر الحديث للدلالة على الرقيّ الفكري والأدبي والاجتماعي للأفراد والجماعات، والثقافة ليست مجموعة من الأفكار فحسب، ولكنها نظرية في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبما يتمثّل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعبٌ من الشعوب، وهي الوجوه المميّزة لمقومات الأمة التي تُميّزُ بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدّسات والقوانين والتجارب، وفي الجملة

^(١) باحث في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

فإن الثقافة هي الكل المركَّب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

وبما أن المقاومة حق مشروع ومطلوب للدفاع عن الوطن وهو مباح بشتى الوسائل التي تتوافق مع الثوابت الشرعية والوطنية وحسب ما تمليه الظروف إما بالسياسة وإما بالقوة فمن لا وطن له لا حياة له، غير أن هذه لها شروطها وأحكامها حتى لا تصبح فوضى يستغلها أصحاب المصالح لصالحهم فتضيع الحقوق ويقع الظلم وتصبح كلمة المقاومة إرهاباً، لذلك علينا أن نعلم ما معنى كلمة المقاومة ومتى تكون.

والمقاومة تولد عند ظهور حالات الظلم والاضطهاد والاحتلال ونهب خيرات الشعوب واستغلالها من قبل الاستعمار وتختلف أشكال المقاومة باختلاف نوع الغزو والاستعمار، فعندما يكون الغزو فكرياً يهدد تراث الأمة وتاريخها ولغتها ليجردها من كل ما يميزها عن غيرها من الأمم يهب رجال الفكر والأدب ليزودوا عن ثقافة أمتهم وتاريخها وأدبها ولغتها وفي هذه الحالة تكون أدوات المقاومة القلم والفكر وعندما يكون الغزو عسكرياً فإن الأمم تهب للدفاع عن أوطانها بكل ما تملك من الرجال والأموال لتدفع عن نفسها الذل والهوان ولا تلقي السلاح حتى ترحل آخر قدم لجنود الاحتلال وطأت تراب الوطن.

وأصبحت كل أمة تفتخر بفترة من فترات تاريخها وهي تلك الفترة التي انتفض فيها أبناؤها وحملوا السلاح ليدافعوا عن وطنهم وأمتهم ليجبروا المحتل على الخروج صاغراً تاركاً لهم حرية الحياة على تربة الوطن.

وبعد نهاية فترة الاستعمار الذي أعقب الحرب العالمية الأولى واندلاع حركات المقاومة في كافة الأقطار العربية لنيل الاستقلال، كان للعراق دور كبير في ترسيخ مفهوم مقاومة الاحتلال تمثلت في انطلاق الشرارة الأولى

لثورة العشرين التي أشعلت الأرض تحت أقدام الإنكليز الغزاة لتبدأ من السماوة ويمتد لهيبها إلى كل أنحاء العراق.

ومن خلال المطالعة التاريخية للشعب العراقي بين الاحتلالين البريطاني والأمريكي نرى أوجهاً كثيرة للمقارنة من أهمها: أن الشعب العراقي انتفض مبكراً لمقاومة الاحتلال فكانت ثورة العشرين هي أول ثورة في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى عبّرت عن أصالة الشعب ولحمته وتماسكه ووطنيته ورفضه لمبدأ الاستسلام والخنوع للأجنبي، وأجبرت البريطانيين عن التخلي عن الحكم المباشر واستبداله بحكومة وطنية، إلا أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، إذ كان يتعامل فيه البريطانيون مع أشخاص مثل الملك فيصل الأول ورفاقه من القادة العراقيين ذوي المؤهلات العالية والانتماء الكبير فإن الإدارة الأميركية اليوم تفاوض نفسها.

وفي الوقت الذي يعجز فيه الاحتلال عن كسر إرادة الشعوب بآلته العسكرية فإنه يعمد إلى استخدام أسلوب آخر ربما يكون أشد فتكاً وهو إشاعة روح الانهزام والاستسلام بين الشعب من خلال وسائل متعددة منها أسلوب إقناع الشعب بأنه جاء محرراً لا يبتغي إلا إرساء قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان وإنهاء الدكتاتوريات التي قيدت الأيدي وكمّمت الأفواه وضمن حقوق الأقليات وحمايتها من الاضطهاد مستخدماً وسائل الإعلام والأقلام المأجورة التي تبشر بهذا المشروع وكأن الاحتلال هو المخلص الوحيد.

وعندما أدرك الاحتلال أن الشعب العراقي اليوم أكثر وعياً وأشد صلابة انتقل إلى مرحلة أخرى وهي أسلوب الضغط على الحاضنة كما فعل سلفهم البريطانيون عندما أحرقوا المحاصيل الزراعية للمدن التي اشتركت في الثورة وتوجيه حملات عسكرية شديدة القسوة ضد المدنيين الذين يشكلون الظهير الحقيقي للمقاوم وإعفاء الشيوخ الذين لم يشتركوا في الثورة من الضرائب،

واليوم يعاود الاحتلال استخدام الأسلوب نفسه من تدمير للمدن والبنية التحتية للخدمات ودور العبادة وقتل الأطفال والشيوخ والنساء واعتقال الرجال وإيداعهم في المعتقلات لفترات غير محدودة.

إن المقاومة اليوم هي عبارة عن منظومة تتكون من الجهد العسكري والشرعي والدعوي والإعلامي والمادي والمعنوي، فضلاً عن العلاقات الخارجية التي تسعى لكسب التأييد الخارجي وتوفير مساحة أكبر للتحرك تتكامل فيما بينها لتصنع أنموذجاً رائعاً للمقاومة التي ستكون في يوم ما سفيراً خالداً يفخر فيه الأبناء والأحفاد فضلاً عن الأمة كلها كما نفخر اليوم بأولئك الرجال العظماء من أبطال ثورة العشرين.

وبعد انتهاء العام السادس للاحتلال فإن المقاومة حققت إعجازاً عظيماً في حجم الخسائر التي كبدتها لقوات الاحتلال، واستخدمت استراتيجية الرعب بكل تفاصيلها وأصبح يخيل للجندي الأمريكي وهو يمشي على الأرض أن كل ذرة تراب من أرض العراق قنبلة ستنفجر عليه، وفي المقابل فإن المقاومة اليوم بحاجة إلى سلاح معنوي يساند سلاح المقاوم على الأرض ويديم زخم المعركة ويجعل البطل الذي يقاوم الاحتلال يشعر إن الأمة كلها وراءه بما تملك وإن مصير الأمة ومستقبلها وتاريخها مرهون بثباته على الأرض وبمطاولته وصبره وجلده، إن السلاح الساند الذي نحتاجه اليوم أكثر من قبل هو إشاعة روح المقاومة أو ثقافة المقاومة بين أبناء الوطن.

ولذا يمكننا تعريف ثقافة المقاومة بأنها مجموعة العوامل الدينية والمعنوية التي تزرع الثبات في النفوس وتدفعها للبذل والعطاء وتقديم النفوس والأموال من أجل مقاومة الاحتلال واستمرارها حتى يخرج جندي من جنود الاحتلال وتنبذ مبدأ الانهزام والاستسلام والمهادنة.

التاريخ يعيد نفسه على أرض الرافدين ولكن لا ندري ما الذي أعمى عيون الغزاة وطمس على بصيرتهم وذهب بهم بعيداً عن تاريخ العراق، ألم يخبرهم حلفاؤهم البريطانيون عن أبطال العراق وهم يقارعون جنود الاحتلال البريطاني بالفالة والمكوار حين حولوا العراق إلى جحيم مستعر ونار متقدة تحت أقدامهم لم يخلصهم منها إلا اللجوء إلى حامياتهم، إن الذي يستقرأ تاريخ العراق يرى إنه شعب لا يقبل الضيم ولا ينام على الذل وإن مقاومة المحتل هي زاده عندما تطأ أقدام جنود الغزاة أرض الوطن، وفي هذه الأوراق سنقلب بعضاً من صفحات تاريخ العراق المشرقة التي سطر فيها الأجداد أروع الملاحم والبطولات ستظل على مدى التاريخ سفيراً خالداً يستلهم منه الأحفاد كل معاني البطولة والإباء والعزة والكرامة ويتعلموا منه رفض الأجنبي الذي جاء ينهب خيرات البلاد ويقتل ويشرد العباد.

ثورة العشرين

وهي الثورة الأولى في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى وومضة مضيئة في تاريخ العراق الحديث وسفر من أسفار شعب الرافدين التي تعبر عن عظمتهم ووطنيتهم ولحمته، انطلقت شرارتها الأولى عندما اعتقل البريطانيون الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الطوالم، قام الثوار على أثرها باقتحام السجن وإطلاق سراحه واندلاع الشرارة الأولى للثورة ليشارك بعدها عشيرة الفتلة وتنتقل الثورة إلى مدينة العمارة والناصرية ثم إلى النجف وكربلاء.

أما ملحمة ثورة العشرين في أبي غريب، فقد اندلعت إثر مواجهة بين الشيخ ضاري المحمود شيخ عشيرة زوبع وبين أحد كبار ضباط الاحتلال البريطاني هو الكولونيل لجمان، حين وجه الشيخ ضاري المحمود له ضربة

سيف أطاحت بعنقه ليقطع الثوار بعدها خطوط الإمداد التي تأتي من الغرب، استطاعوا فيها تكبيد جيش الاحتلال خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات وقطع خطوط الإمداد وتدمير بعض خطوط سكك الحديد التي يستخدمها الاحتلال لنقل الجنود والعتاد لتعزيز قواته في المناطق التي اندلعت فيها الثورة والاستيلاء على الكثير من الأسلحة والذخيرة التي ساعدت الثوار في إطالة أمد القتال وفي الكوفة استطاع الثوار أن يغنموا مدفعاً أغرقوا فيه إحدى السفن البريطانية.

تبين ثورة العشرين وعي الشعب العراقي من خلال تكاتف عشائر العراق والتفافها حول شيوخها الذين كانوا قادة للثورة ما أكسبها بعداً وطنياً كبيراً اشتركت فيه كافة مكونات الشعب العراقي، وبعد أسابيع من اندلاع الثورة سيطر الثوار على أغلب المدن وانسحب جنود الاحتلال إلى حامياتهم ليحتموا بها من ضربات الثوار التي كبدتهم خسائر كبيرة وزرعت فيهم الرعب والخوف مما اضطر البريطانيين إلى استقدام قوات أخرى من الهند عن طريق البصرة والأردن لكي يعززوا موقفهم لجأ البريطانيون بعدها إلى القيام بحملات عسكرية قاسية والتضييق على الناس بحرق محاصيلهم الزراعية وهدم بيوتهم لإجبارهم على الاستسلام وإلقاء السلاح، وبعد انتهاء الثورة عقد الاحتلال مؤتمراً في الأردن اتخذ على أثره قراراً تخلى بموجبه عن الإدارة الفعلية للعراق إلى حكومة من العراقيين.

دور العلماء في ثورة العشرين

كان لعلماء الدين دور بارز في حشد الناس وتشجيعهم للانضمام إلى الثوار الذين بدأوا الثورة في جنوب العراق وشماله وقد شارك عدد كبير من علماء العراق من شماله إلى جنوبه في مد وقود هذه الثورة في خطب الجمعة

والتجمعات الدينية، وكانت من أشهرها في الجنوب الخطبة التي ألقاها الشيخ محمد الخالصي في كربلاء، وهذه مقتطفات منها:

(أستعيز بالله أن أقول ما قالته بريطانيا بأن العراق يحتاج إلى قيم وولي ووليه وقيمه بريطانيا، هكذا أرادت بكم تلك الدولة القاسية التي لا ترى غيرها في العالم، وتحسب صنوف البشر عبيداً أرقاء أذلاء لا يملكون لأنفسهم تجاه بريطانيا نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة.

وأنتم واقفون بين بريطانيا وخالقها، خالقها يصفكم بصفة الأعلون، والمخلوق يصفكم بصفة الأدنون، فإن قبلتم صفة المخلوقين ذللتكم وخزيتكم وأصابكم الدناءة واشترتكم بعد ذلك مرضاة المخلوق بسخط الخالق، وإن قبلتم صفة الخالق ذل لكم المخلوق، وإن من كان لله كان الله له، وعشتم أعزاء أعلون في بلادكم ولا يصيبكم حزن ولا وهن، وشرط ذلك خلوص الإيمان، كما شرط الله عليكم عدم الرضوخ إلى نزعات الشيطان الذي يخوف أوليائه {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمُ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} يعرج بكم إلى أوج السعادة ومنتهى درجات العزة، ومتابعة الشيطان تهوي بكم إلى الحضيض وأسفل دركات الذل، إن تابعتكم بريطانيا وعشتم أذلاء في بلادكم).

اشتد الحماس بالحاضرين وكثر البكاء بينهم وعلت الضجة وقطع رؤساء العشائر رباط عقالهم بسيوفهم إيذاناً بأنهم مستميتون في سبيل الدفاع عن العراق، ثم انفض الاجتماع والرؤساء مستعدون جميعاً للحرب عازمون على الموت في سبيل حفظ حقوق العراق.

دور الشعراء والأدباء في ثورة العشرين

كان للشعراء دور كبير في إلهاب حماسة الناس ودفعهم للالتحاق بالثوار، وكان الشعر وقوداً أجج الحماس ضد الاحتلال البريطاني الذي هيمن على

مقدرات الوطن وبذل الشعراء جهوداً كبيرة لتهييج الرأي العام ضد الاحتلال من خلال المساجد وأيام المناسبات.

ومن الملاحظ أن مدينة بغداد كانت قد تزعمت حركة الثورة بداية لكنها لم تستطع أن تقوم بعمل عسكري لأنها كانت تحت السيطرة البريطانية مباشرة، إلا أن الثورة استمرت في مناطق أخرى، واتفق الشعراء على الهدف في المطالبة بإنهاء حكم الإنكليز والمطالبة بحكومة استقلال، وحرصوا على ذلك فهذا محمد حبيب العبيدي يقول:

لم تكن يا ابن لندن علوياً

هاشميةً ولم تكن قرشياً

لا ولا مسلماً ولا عربياً

من بني قومنا ولا شرقياً

فلماذا تكون فينا وصياً

إن رضينا بالأجنبي وصياً

إنما نحن في الحروب رجال

وكما يوم الوغى أبطال

يا لقومي فلنتتج الأعمال

يا بني العرب خابت الآمال

ولقد كان أشهر شعراء الثورة العراقية محمد مهدي البصير بحماسته ضد

الإنكليز محرراً للشعب قائلاً له:

أفيطلبون لك الرعاية ضلة

ما كان أقصرهم وما أصحاكا

ولو أنصفوك لحرروك لأنهم

ربحوا قضيتهم بظل لواكا

والشاعر القشطيني بقصيدته التي يدعو إلى الموت في سبيل الأوطان:
يا أيها العربي قم
واقدح زنادك ينقدح
وافتح طريقك بالطبى
فبغيرها لا ينصلح
وخذ الحقوق جميعها
أو مت عزيزاً واسترح
وانبرى الشاعر محمد الباقر الحلي يحذر من الركون إلى وعود الإنكليز
وضرب أمثلة مما قاموا به في مصر والهند:
يريدون منكم بالوعد مكيدة
ويبغون إن حانت لهم فرصة غدراً
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا
أضاليلهم في الهند والكذب في مصر
ومن مات دون الحق والحق واضح
إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا
وعلى الفور قام الشيخ محمد العبطان وسل سيفه وقال: إنا قطعنا على
أنفسنا عهداً، إما الموت أو الاستقلال التام.
وخلد الشاعر محمد الجواهري معركة الرارنجية التي انتصر فيها الثوار
وأحرقوا فيها قطارين للبريطانيين
وللفرات نهضة
مشهودة لا تجد
بفتية على المنى
أو المنايا احتشدوا

وللفطار وقعة

منها نفر الكبد

ما تركوا حتى الحديد

سلسلوا وقيدوا

دور المقاهي في بث روح المقاومة

استمرت المقاومة الوطنية للعراقيين ومظاهراتهم ضد الهيمنة البريطانية والحكومات المرتبطة بالاستعمار الأجنبي طوال عقود العشرينات والثلاثينات والأربعينات حتى قيام الثورة عام ١٩٥٨م، وكان شارع الرشيد ومقاهي منطقة (الحيدر خانة) تحديداً، البؤرة التي تنطلق منها تجمعات المثقفين والسياسيين ومظاهراتهم المعارضة للاستعمار البريطاني.

ولعل من أبرز الشخصيات الثقافية التي غدت الحماس الوطني وألبته مع بدء ثورة العشرين في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م الشاعر والخطيب المعروف محمد مهدي البصير، وفي الثلاثينات شهد شارع "الحيدر خانة" نفسه ومقهى "عارف آغا" عدداً من الاحتفالات التي كان يحييها الشاعر معروف الرصافي، لتتحول إلى مظاهرات تخرج من المقهى لتنضم إلى الحشود، يشترك فيها عدد من أبرز الوجوه الوطنية والثقافية في العراق.

وشبيه بهذه الاحتفالات ما كان يقوم به شاعر العراق محمد مهدي الجواهري وهو خارج من "مقهى حسن عجمي" أو مقهى "البرلمان"، ليلقي قصائده العصماء التي تجر وراءها مظاهرات تبدأ ولا تنتهي، إن هذه المقاهي هي نفسها التي شهدت انطلاقاً للتظاهرة الكبيرة منها عام ١٩٤٨م لتسقط حكومة صالح جبر، ملغية المعاهدة البغيضة المعروفة بمعاهدة "جبر بيفن" المبرمة بين العراق وبريطانيا.

ثورة رشيد عالي الكيلاني

تمثل هذه الثورة دلالة واضحة على وطنية الشعب العراقي ومقاومته لكل مظاهر التبعية للاستعمار، وتختلف عن سابقتها ثورة العشرين التي كانت عبارة عن ثورة شعبية عارمة قامت بها عشائر العراق وامتدت من جنوب العراق إلى وسطه وشماله في كونها ثورة اشترك فيها كل فئات الشعب العراقي من برلمانيين أدت ثورتهم إلى إحداث تغيير دستوري وإسقاط حكومة كانت تابعة لبريطانيا وتعيين وصي جديد للعرش وضباط أحرار ساندوا التغيير الوزاري لصالح الثورة وصحفي وشعراء العراق إضافة إلى عشائره في البصرة والفلوجة وبغداد.

كان السبب الرئيس لقيام الثورة استجابة حكومة نوري سعيد والوصي لمطالب بريطانيا في الحرب العالمية الثانية والتي تتعدى التزامات العراق الموقع عليها في معاهدة ١٩٣٠م، إذ طلبت بريطانيا من الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات عسكرية للجيش البريطاني وقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا وإيطاليا واعتقال الرعايا والدبلوماسيين لكلا الدولتين وتجميد الأموال العائدة لهما في العراق، قوبلت هذه المطالبات برفض شديد من القوى الوطنية في البرلمان والجيش العراقي المتمثلة برشيد عالي الكيلاني الذي كان يشغل منصب رئيس الديوان الملكي ورئيس أركان الجيش حسن فوزي والمربع الذهبي المتمثل بالضباط الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سليمان، أدى ازدياد الغضب الشعبي وتفاقم الأزمة السياسية إلى استقالة حكومة نوري سعيد ولجوء الوصي عبد الإله إلى إسناد مهمة تشكيل وزارة جديدة إلى السيد رشيد عالي الكيلاني سميت بحكومة الإنقاذ الوطني.

ومع تطور العمليات العسكرية في أوروبا والهزائم التي مني بها الحلفاء عامي ١٩٤٠م و ١٩٤١م واحتلال ألمانيا لفرنسا ودخول إيطاليا الحرب مع ألمانيا، تعالت الصيحات المطالبة بإنهاء الوجود البريطاني في العراق وإلغاء معاهدة ١٩٣٠م، وتوالت الضغوط السياسية على حكومة الكيلاني المنادية بضرورة التحالف الاستراتيجي مع دول المحور لتحقيق تلك المطالب، إلا أن الكيلاني من جهته كان مدركاً لخطورة القوات البريطانية التي لا يستهان بها في العراق على الرغم من الهزائم التي منوا بها في جبهات أوروبا، فكان لزاماً عليه اتباع سياسة عدم انحياز مدروسة والتي دعا لها، في الوقت الذي وجد نفسه محاطاً بمؤيدين متطوعين من المتعاطفين مع المحور أهمهم مجموعة المربع الذهبي والتي كانت تحوز على تعاطف القوات المسلحة، من قادة وأمرين وقطعات مختلفة، وشيئاً فشيئاً تعاضمت مطالب القوى الوطنية التي رأت في الكيلاني الملاذ لتخليصها من الهيمنة البريطانية فدفعته لاتخاذ مواقف أكثر حزمًا بالوقوف ضد المطالب البريطانية التي حددتها المعاهدة في أوقات الحرب.

حاولت بريطانيا جس نبض الحكومة وذلك بمطالبتها الحكومة العراقية إعلان الحرب على دول المحور وتقديم تسهيلات باستخدام القطارات والمطارات العراقية لتسهيل مهمات القوات البريطانية، قوبلت هذه الطلبات برفض الحكومة العراقية التي حاولت استغلال ضعف الموقف البريطاني للتخلص من التبعية لبريطانيا، طالبت بريطانيا بعدها وضباطها الموجودون في القواعد العسكرية باستقالة حكومة رشيد عالي الكيلاني وتدخل الوصي لحل المشكلة وطالب باستقالة الحكومة وتشكيل حكومة جديدة برئاسة حليفه نوري سعيد، شكلت هذه المطالب تحدياً سافراً للكيلاني بحيث تعد استجابة الكيلاني لهذه المطالب استسلاماً لبريطانيا.

دور الجيش العراقي في الثورة

كان للجيش العراقي دوراً وطنياً كبيراً في مساندة الثورة من البداية بمؤازرته للقوى الوطنية في البرلمان وقيامه بمحاصرة القوات البريطانية في قاعدة الحبانية لصد أي هجوم تقوم به على بغداد من أجل إعادة احتلال بغداد وإعادة تنصيب حكومة نوري سعيد التي لجأت إلى الأردن وتنصيب الوصي عبد الإله الذي فرّ إلى القاعدة البريطانية في البصرة قبل الثورة، خاض الجيش العراقي معارك باسلة في منطقة الحبانية والفوجة ولكن التفوق الكبير للجيش البريطاني ووصول قوات إضافية من الأردن أدّى إلى تعزيز الموقف لصالح القوات البريطانية ما أدى إلى نهاية الحرب لصالح بريطانيا.

الدور الشعبي لمساندة الثورة

لم تكد تبدأ حكومة الدفاع الوطني حتى أجمع العراقيون على تأييدها، وقد تمثل ذلك التأييد ببرقيات التهنئة المرسلة من قبلهم تعبيراً عن موقفهم المؤيد لها، وكانت الحماسة شديدة لتأييدها بين أوساط الطبقة المتقفة وخاصة بين منتسبي المعارف من موظفين ومدرسين وطلاب لأنهم كانوا على درجة عالية من الوعي وأدركوا وطنية هذه الحكومة والغاية من قيامها، وقد تجسد هذا التأييد بخروج فتوة المدارس باستعراض منظم وساروا في الشوارع الرئيسية معبرين عن فرحتهم بقيام الحكومة الجديدة، وكانت النساء الواقفات على شرفات المنازل يقبلن ذلك بالزغاريد والهتاف، كذلك أعلنت معظم العشائر في العراق عن موقفها الصريح في تأييد حكومة الدفاع الوطني، ولما أعلنت بريطانيا الحرب على العراق في الثاني من آذار/ مارس استعدت تلك العشائر للمشاركة في الدفاع والتصدي للبريطانيين خاصة بعد الفتاوى التي أطلقها علماء الدين للجهاد.

دور المرأة العراقية في ثورة آذار/ مارس

لقد كانت البصرة والفلوجة ساحة المعركة المتوقعة بين الجيش العراقي والقوات البريطانية، لذلك كان لأهالي هاتين المنطقتين وقفة مشرفة في تقديم كل أنواع العون والمساعدة للجيش العراقي، أما في الفلوجة فقد شاركت العشائر في القتال جنباً إلى جنب مع الجيش العراقي فيما تقوم النساء متطوعات بإعداد الطعام للجيش بعد اندلاع الحرب واضطرار الجيش للانسحاب إلى الخلف، كما كان للمرأة البصرية دور متميز في دعم حكومة الدفاع الوطني، فقد قدمت بعض النسوة الدعم المادي والمعنوي للثورة، ولعل أبرز من عبّر عن موقف المرأة المثقفة في ذلك الوقت السيدة "تبيهة اسماعيل" التي كانت مديرة لمتوسطة البصرة للبنات حيث ألقت خطبة في ١ آذار/ مارس عام ١٩٤١م بمناسبة تحية العلم العراقي عنوانها (واجب المرأة العراقية اتجاه الوطن العزيز)، وكانت بمثابة نداء ثوري موجه إلى المرأة العراقية يدعوها لتلبية صوت الوطن، ولعل أبرز ما ورد في خطبتها قولها: "لقد حفزني حب الوطن المتغلغل في نفسي وروحي القومية والشيمة العربية التي جبلنا عليها أن أنادي أخواتي وبناتي بأنه قد آن الأوان ودنت الساعة الرهيبة التي ستظهر فيها بطولتنا، فالواجب يحتم على الفتاة العراقية أن تقف جنب أخيها في ساحات الوغى كما وقفت جداتها بين مشجر الفناء وتحت ظلال السيوف".

وبعد أن استعرضت البطولات الفذة التي قدمتها بعض النسوة العربيات اللائي يفخر بتدوينها تاريخنا العربي الإسلامي وقالت: "أخواتي وبناتي، لكل الشعوب الأبية مواقف عرفت بها وأثرت عنها فكانت مهبط الشرف من حياتها ومعقد الفخر من سيرتها، وليس موقف أمثال هذه الشعوب أملاً للقلب وأملك للنفس وآثر في التأريخ من موقف شعبنا العراقي النبيل الذي برهننا فيه

وسنبرهن لأصحاب السياسة الغاشمة والأمم الخائنة لجهودها ولمن وراءهم
ومن يواليهم بأننا سنقف في وجههم شباناً وكهولاً ونساءً فنردهم على أعقابهم.

دور الشعراء في ثورة آذار/ مارس

كان لشعراء العراق الدور البارز في تعبئة الشعب للوقوف مع الثورة
ومطالبة القوى الوطنية في الحكومة والجيش العراقي بمزيد من الثبات
والصمود من أجل نيل الاستقلال والتخلص من التبعية لبريطانيا، ومن أبرز
شعراء الثورة السيد عزيز علي والشاعر أحمد صافي النجفي ومعروف
الرصافي الذي خلد معركة الفلوجة بقصيدة وهذا جزء منها:

أيها الإنكليز لن نتناسى

بغيتكم في مساكن الفلوجة

ذاك بغي لن يشفي الله إلا

بالمواضي جريحه وشجيجه

هو خطب أبكى العراقيين

والشام وركن البنية المحجوجة

حلمها جيشكم يريد انتقاماً

وهو مغر بالساكنين علوجه

فاستهانت بالمسلمين سفاهاً

واتخذتم من اليهود وليجة

وطن عشت فيه غير سعيد

يعش حراً يأبى على الدهر عوجه

أتمنى فيه السعادة لكن

ليس لي فيه ناقة منتوجه

كل يوم بعزّه أتغنّى جاعلاً

ذكر عزّه أهزوجه

ما حياة الإنسان بالذل إلا

مرة عند حسّوها ممجوه

فثناءً للرافدين وشكراً

وسلاماً عليك يا فلوجة

الغزو الأمريكي للعراق فى عام ٢٠٠٣م

بالرغم من فداحة الخطب وهول المصيبة التي أحاطت بالعراقيين من كل حذب وصوب وهم يرون دبابات الاحتلال تجوب شوارع بغداد عاصمة الرشيد وأسراب طائراتهم وهي تستبيح سماء العراق، فإن أبناء الرافدين لم يقفوا مكتوفي الأيدي وهم يرون التاريخ استدار إلى الوراء دورة كاملة ليذكرهم بالقائد البريطاني مود الذي خاطبهم بأنه جاء فاتحاً فعادت بهم ذاكرتهم إلى أولئك الأجداد العظام الذين قاتلوا المدفع البريطاني بالفالة والمكوار لتبقى أهزجتهم "الطوب أحسن لو مكواري" مخزونة في ذاكرة التاريخ يسترجعونها متى ما دار التاريخ دورته وعادت جيوش الغزاة لتطأ أرض الرافدين من جديد.

الشعب العراقي إبان الاحتلال

عند بداية الغزو وتصعيد العمليات العسكرية التي كان الهدف منها احتلال العراق وتدمير البنية التحتية للدولة العراقية، لم يكن الغزو يستهدف تغيير حكومة أو إزالة نظام حكم بل كان هدفه احتلال العراق وتجزئته إلى دويلات على أساس طائفي أو عرقي، ومع بداية الغزو نرى أن شعب الرافدين سلك

سلوكاً عظيماً ينم عن أصالته ووعيه الوطني يتمثل في الأعمال التي قام بها العراقيون أثناء المعركة والتي كان من أهمها:

مع تصعيد العمليات العسكرية واشتداد قسوتها حدثت هجرة جماعية من بغداد إلى بقية المحافظات القريبة منها حتى خلت بغداد من معظم سكانها، استقبلهم أخوتهم في المحافظات المجاورة وفتحوا لهم أبوابهم وأسكنوهم معهم وتقاسموا معهم الحياة طيلة تلك الفترة حتى تمّ إعلان توقف العمليات العسكرية وبداية رجوع سكان بغداد إليها، حتى أن علماء الدين تعجبوا من لحنمة العراقيين وتراحمهم فيما بينهم وطيبة قلوبهم فأطلقوا عبارة جميلة "لقد أرجعتم فينا كرم الأنصار وأخوتهم للمهاجرين".

مع غياب مؤسسات الدولة فإن كل منطقة عقدت مؤتمراً من علماء الدين ووجهاء العشائر وبعض المسؤولين لتكوين لجنة تتولى مهمة إدارة المدينة والمحافظة على الدوائر التابعة إليها وحفظ الأمن وحقوق الناس فيها.

كثرة المظاهرات التي انطلقت تجوب شوارع العراق مطالبة بالاحتلال بالرحيل عن أرض العراق ومعبرة عن اللحنمة الوطنية للشعب العراقي، انطلق البعض منها من مسجد أبي حنيفة النعمان بعد صلاة الجمعة يقودها علماء الدين من السنة والشيعة معبرين للاحتلال بأن أبناء العراق لا يمكن تفريقهم على أساس الدين والعرق يردودن الأزوجة التي تعبر عن وحدة أرض وشعب العراق "أخوان سنة وشيعة هذا البلد ما نبيعه".

هيئة علماء المسلمين

بعد أيام من احتلال بغداد اجتمع نفر من علماء العراق ومفكره للنظر في المستجدات الخطيرة التي طرأت على البلاد، ومن ثم اتخذوا قراراً بتأسيس هيئة شرعية عرفت فيما بعد بهيئة علماء المسلمين، واستجابة للضرورة

الواقعية تفرع عن الهيئة فروعاً أخرى في أغلب مدن العراق، ولكل فرع مكاتب تعمل على خدمة الناس في المجال الذي تبنته الهيئة كما أنها ساعدت في المجالات الأخرى التي رأت فيها مصلحة للبلد وأهله، وكان من أهم الأعمال التي قامت بها الهيئة معالجة الخلل الذي طال منظومة المساجد بسبب انهيار المؤسسات التي كانت تديرها والعمل على تهدئة الأوضاع الداخلية بين مكونات الشعب العراقي والحيلولة دون وقوع فتنة طائفية أو عرقية أو دينية.

الاستعداد للمقاومة مع بداية المعركة ودخول القوات الأمريكية ببغداد

مع انطلاق أول صاروخ على أرض بغداد الحبيبة، بدأت تحركات أسود الرافدين يجوبون أرض العراق يجمعون الأسلحة المختلفة وتخزينها استعداداً منهم لبداية المعركة التي لم تكن في حسابان الاحتلال، فتحوّلت صحراء العراق وبساتينه ومزارعه إلى مخازن للسلاح والعتاد متحدين بذلك الاحتلال وقواته ووعيده ومعتقلاته، ورغم كل إجراءات الاحتلال من اعتقال وهدم البيوت وتجريف البساتين لمن يشتبه به تقديم المساعدة للمجاهدين، إلا أن شعب العراق ازداد ثباتاً وشموخاً وسجل التاريخ كلمات خالدة لبعض العراقيين وهو يرى بيته يهدم وعائلته تقتل جراء القصف الوحشي الأمريكي فلا يزيد على قول كلمة "كلنا فداء للدين والوطن".

بداية العمليات العسكرية ضد الاحتلال

لم يشهد التاريخ مثيلاً للمقاومة العراقية في سرعة نشوئها بعد الاحتلال وحجم الخسائر التي كبدتها لقواته بعد أربعة أشهر من دخول القوات الأمريكية أرض بغداد، انطلقت صولات المجاهدين وعلت صيحات الله أكبر

من حناجرهم مدوية في سماء العراق معلنة بداية المنازلة مع قوات الاحتلال، وما أن نُفذت أول عملية ضد الاحتلال حتى توالى البطولات تترا في أرض الرافدين، واستحالت الأرض لهيباً تحت أقدامهم وتحول العراق جحيماً تلظى من حولهم، لقد أذهل مجاهدو العراق العالم كله بنوعية العمليات التي نفذوها والتي تمكنوا من خلالها من إسقاط طائرات الاحتلال وتدمير دباباته وعجلاته، في بداية العمليات استطاع المجاهدون من إسقاط طائرة مروحية في الفلوجة ثم إسقاط طائرة (C-130) غربي الفلوجة وإسقاط طائرة أخرى في منطقة الضلوعية، وتعد معركة الفلوجة الأولى هي ملحمة الجهاد في العراق حيث تورط الاحتلال في عميلة عسكرية داخل الفلوجة ثاراً لبعض منتسبي الشركات الأمنية ثم تحولت ردود الفعل على هذه العملية إلى ثورة شعبية اشترك فيها كل المجاهدين وعشائر العراق تم فيها إسقاط ما يقارب من عشرين طائرة وقطع خطوط الإمداد عن القوات الأمريكية بحيث تعذر عليهم إيصال المؤن والغذاء لقواتهم في القواعد والمعسكرات فضلاً عن القوات التي تتواجد على مشارف الفلوجة، مما اضطر الاحتلال إلى إيقاف القتال ودخوله في مفاوضات مع مدينة الفلوجة وقبوله بدفع تعويضات للأضرار التي سببها القصف الأمريكي للمدينة.

هذا فضلاً عن قيام أغلب مدن العراق القريبة من الفلوجة بإرسال قافلات من السيارات محملة بالمواد الغذائية والأدوية وبقائهم أياماً على مداخل الفلوجة من أجل إدخالها إلى المقاومين في الداخل، فضلاً عن المظاهرات التي انطلقت في كثير من المدن العراقية منددة بالعملية العسكرية التي تقوم بها قوات الاحتلال في المدينة ومعبرة عن حق العراقيين في الدفاع عن وطنهم.

العراقيون والمعتقلات الأمريكية

مع بداية الاحتلال قامت القوات الأمريكية بإنشاء معتقلات عدة أودعت فيها من ترى فيه أي خطورة على قواتها أو من يشتبه به بالقيام بأعمال ضد قوات الاحتلال، ورغم كل الظروف الصعبة التي عاشها المعتقلون والظروف الصحية والإنسانية الصعبة التي عاشها المعتقلون والانتهاكات الكبيرة التي قامت بها قوات الاحتلال لحقوق الإنسان في داخل المعتقلات وتعرضهم لحالات من التعذيب الجسدي والاعتداءات اللاأخلاقية، إلا أن ذلك لم يثن العراقيون من مقاومة الاحتلال، استطاع العراقيون داخل السجون من تحويلها إلى مدارس الغاية منها إعداد المجاهدين وتعليمهم القرآن والفنون القتالية واستخدام الأسلحة وتبادل الخبرات والمعلومات، وشهدت المعتقلات الكثير من الفعاليات التي تدل على عظمة شعب الرافدين ووعيه الوطني وتمسكه بإسلامه وعرويته إضافة إلى عقد الأمسيات والندوات التي يتخللها محاضرات وإلقاء القصائد والمواعظ التي تهون على المعتقلين ما هم فيه من الضيق وتعددهم وتشجعهم على مواصلة المقاومة والجهاد عند الخروج من المعتقل، وشهدت المعتقلات الكثير من العراقيين الذين تم اعتقالهم للمرة الثانية والثالثة ولم يثنهم الاعتقال وظروفه الصعبة عن مواصلة المسيرة.

تداعيات ونتائج الأزمة المالية العالمية والمنظور الإسلامي لها..

عبد الستار أحمد^(١)

إن ما جرى ويجري على الساحة الاقتصادية العالمية من تداعيات منطقية وواقعية هي في حقيقتها نتيجة لأزمة مالية من العيار الثقيل لم تستثنِ أيّاً من دول العالم وتستحق بجدارة أن توصف بكونها كارثة القرن الجديد، وإن هذا الحدث يستحق أن يكون حدث الساعة وحدث الإعلام المرئي والمسموع والمقروء وبلا منازع، وإن نتائج هذه الأزمة لم تكن بحسابات الورقة والقلم فحسب بل يشعر المتتبع أن هناك يداً تمتلك القوة المطلقة أوصلت هذه الأزمة لهذه الدرجة، ومن الملفت للنظر أن تتصدر وسائل الإعلام وبكل أنواعها أحداثاً أو أخبار لا تقارن أهميتها بأهمية الأزمة المالية العالمية التي هي بمثابة المصيبة التي ستأخذ بيد العالم المتقدم والمتأخر على حد سواء إلى الهاوية.

^(١) رئيس قسم التطوير في مركز الأمة للدراسات والتطوير.

وما يلفت النظر ذلك التكتّم الإعلامي الشديد من قبل القوى العالمية المسيطرة على معظم وسائل الإعلام العالمية على هذا الحدث الجلل، وبطبيعة الحال فإن هذا التكتّم لم يكن عفويّاً بل كان مبيتاً ومع سبق الإصرار، والأمر لم يكن بالجديد فقد سبق وأن تكتمت تلك المؤسسات على ما حصل من ضربات تعد قاصمة للاقتصاد الأمريكي وبالتحديد بعد عام ٢٠٠٠م وصعوداً، ففي الفترة من ١١/ أيلول ٢٠٠١م وحتى ١١/ أيلول ٢٠٠٢م انهارت وأفلست مجموعة كبيرة من الشركات الأمريكية، قدرت بـ (٦٠) ألف شركة وقد تمّ تسريح ما لا يقل (١٤٠) ألف عامل أمريكي في تلك الفترة (وفقاً لتقرير صحيفة " وول ستريت جورنال" ..

هذا بالإضافة إلى حالات الإفلاس^(١) على المستوى الشخصي والتي سجلت في نفس الفترة رقماً قياسياً للإفلاس بلغ (٣٩١) ألف حالة إفلاس وبخسائر تصل إلى (٨٠٦) تريليون دولار وذلك وفقاً لمعطيات لاتحاد أسواق المال الدولي.. وهنا نبين بعض ما جرى من كوارث حلت بالاقتصاد

(١) الإفلاس: هو أن تعلن المؤسسة أنها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها أمام الدائنين، وحينها تقوم الشركة بتصفية كل أملاكها وحساباتها البنكية لتسدد أكبر قدر ممكن من هذه الالتزامات ثم تخرج من سوق العمل، وعادة يحدث الإفلاس نتيجة قيام الشركات بالاقتراض لعدم توافر السيولة الكافية مع الأخذ في الحسبان إمكانية تسديد هذه الالتزامات في موعدها المحدد عندما تبدأ مرحلة جني عائد المبيعات، ولكن يحدث تغيير في الخطة أو لا يكون العائد المتوقع كافياً بحيث يغطي الالتزامات، فتضطر الشركة إلى تصفية بعض أملاكها لتسديد الالتزامات، فإن لم تكف قيمة الأملاك حجم الالتزام مع الآخرين، تعلن الشركة إفلاسها، وأحياناً قد يحدث الإفلاس نتيجة التزوير في حسابات الشركة لإخفاء الخسائر، حيث تسجل الشركة في حساباتها أرباحاً وهمية لتخفي حقيقة أنها تخسر، وذلك حتى لا تسقط أسهمها في البورصة وبالتالي تنخفض قيمة الشركة، ولكن ذلك يؤدي في النهاية إلى فقدان الشركة لرأس مالها شيئاً فشيئاً بدون أن يظهر ذلك على السطح، ثم يحدث فجأة الإفلاس السريع، حيث تجد الشركة نفسها مدينة بالكثير من المال لحملة الأسهم وتكون غير قادرة على تسديده فتفلس.

الأمريكي بعد عام ٢٠٠٠م ولغاية الإعلان الرسمي عن الأزمة المالية العالمية المتفشية هذه الأيام:

في عام ٢٠٠١م سجلت شركة "يو أس أيروليز" طلباً لإشهار الإفلاس علماً أن أصولها تقدر بنحو (٧،٨١) مليار دولار مقابل ديون بلغت قيمتها (٧،٨٣) مليار دولار.. وهذه الشركة هي سابع شركة طيران أمريكية، كما أنها تشغل المكانة رقم (١٤) في قائمة كبرى شركات الطيران العالمية وتخدم أكثر من (٢٠٠) موقع داخل الولايات المتحدة وتنظم رحلات جوية للمكسيك وكندا ودول منطقة الكاريبي واعترف مسؤول الشركة بأن خسائرها بلغت ملياراً ونصف مليار دولار في عام ٢٠٠١م..

في كانون الثاني عام ٢٠٠٢م أعلن إفلاس الشركة العملاقة الأمريكية المتحكمة في الطاقة (إنرون) والتي تربعت على عرشها في ولاية تكساس لتدير دفعة النفط وما يتبع النفط من طاقة كهربائية هي عصب الصناعة الأمريكية بل الاقتصاد الأمريكي بشكل عام.. و"إنرون" هذه دأبت على تمويل الحملات الانتخابية الرئاسية والبرلمانية بصورة غير متوازنة بين الجمهوريين والديمقراطيين.

إن انهيار "إنرون" دمرت معها إمبراطورية رأسمالية ضخمة تراكمت عبر سبعين عاماً وأودعها الأثرياء أموالهم جيلاً بعد جيل، ثقة منهم في مستقبل الطاقة ومستقبل الريادة الأمريكية في حقول نفط العالم، ولم تكن "إنرون" الوحيدة في هذا المصايب بل كانت معها شركات أمريكية عملاقة مثل "جلوبال كروسينج" و"زيروكس" و"أدلفيا كوميونيكيشن" و"بالجرين سيستمز" و"ورلد كوم"..

شهد عام ٢٠٠٢م توقف الكثير من شركات الطيران عن العمل، فقد توقفت شركة طيران أمريكية هي "ميد واي إير لاينز" عن العمل وسرحت

جميع موظفيها والتي تعد ثالث أكبر شركة طيران في العالم، وتوقع جوردون بيتون رئيس شركة كونتيننتال أن يفقد ما بين مائة ومنتى ألف موظف بشركات الطيران حول العالم وظائفهم بسبب الكارثة في ذلك الوقت وقد كانت خسائر قطاع النقل الجوي في الولايات المتحدة سبعة عشر مليار دولار في ٢٠٠١م..

في عام ٢٠٠٥م بلغت الديون الوطنية الأمريكية بحدود ثمانية تريليونات ومائة وثمانين ملياراً من الدولارات وقد أشهر أكثر من مليوني أمريكي ثري إفلاسهم في نفس العام..

وعلى الرغم من هذه الحوادث الجسام وغيرها حاولت الولايات المتحدة الأمريكية إظهار أن الموضوع لا يتعدى مشاكل اقتصادية اعتيادية، إلا أن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق ولم يكن بإمكان أصحاب القرار التكتم على ما يجري من انهيار اقتصادي إلى ما لا نهاية، فقد أزف وقت الفضائح والإعلان عما يجري فقد تعقدت الأمور وبلغت مراحل متقدمة من السوء وظهرت ما يعرف بالأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م التي ظهرت تداعياتها بشكل صريح وواضح في الولايات المتحدة الأمريكية ثم بريطانيا ثم أوروبا ثم انتقلت لبقية بلدان العالم، وهنا اضطر بعض قادة العالم بل وتجراً بعضهم في انتقاد الولايات المتحدة الأمريكية، فقد قال رئيس الوزراء البريطاني غوردون براون: "الاستهتار داخل الولايات المتحدة بالنظام المالي هو الذي أدى إلى أزمة الائتمان المالي التي يعاني منها العالم"، فقد انهارت أو أفلست شركات ومؤسسات في كل أنحاء العالم، في أمريكا وأوروبا وأفريقيا وآسيا ومن تلك الشركات أو المؤسسات:

• بنك الأعمال الأميركي "بير ستيرنز" الذي يعاني من نقص السيولة، اشتره بنك "جي بي مورغان تشيز" بمساعدة السلطات الفدرالية، وإن تدخل السلطات

الفدرالية في هذا الباب وحده يكفي لإعطاء إشارة إلى حجم الكارثة لأن ذلك يتناقض مع أصل الفكر الرأسمالي..

• المجموعة الأميركية "واشنطن ميوتشوال"، سادس بنك أميركي من حيث الأصول، أعلنت إفلاسها أيلول ٢٠٠٨م، وقد أغلقتها السلطات الأميركية ونظمت التحويل الفوري لودائعها إلى منافسها "جي. بي. مورغان تشيز" مقابل (١،٩) مليار دولار..

• تأميم المجموعة الأميركية العملاقة في مجال التأمين "أي آي جي" في أيلول ٢٠٠٨م لتفادي إفلاسها..

• اشترى "سي تي غروب" مصرف "واكوفيا" رابع بنك أميركي من حيث الأصول..

• بنك الأعمال الأميركي "ليمان براذرز" وضع في ٢٠٠٩م تحت حماية قانون الإفلاس قبل تصفيته، واشترى البنك البريطاني "باركليز" نشاطاته الأميركية، في حين اشترى البنك الياباني "تومورا هولدينغ" النشاطات في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط..

• وضعت وزارة الخزانة الأميركية "فاني ماك" و "فريدي ماك"، وهما هيتان لإعادة تمويل التسليفات العقارية، تحت وصاية الدولة في أيلول ٢٠٠٨م.

• مشروع "سي تي سنتر في ولاية لاس فيغاس" البالغ حجم استثماراته (٨ مليارات دولار)، والذي تملكه "أم جي أم ميراج" و"دبي العالمية"، يطلب النصح بشأن إشهار الإفلاس..

• "الواشنطن بوست" من أشهر الصحف الأميركية وهي جريدة أمريكية تصدر من العاصمة الأمريكية "واشنطن دي سي" تم تأسيسها عام ١٨٧٧م، أعلنت في آذار عام ٢٠٠٩م لأول مرة منذ إصدارها بتخفيض رواتب موظفيها وتسريح عدد كبير من الموظفين بسبب مشاكل في تسويقها وعزوف

أعداد كبيرة من المشتركين عن الشراء إضافة لمشاكل مالية عالقة مع البنوك بسبب الأزمة المالية.

• أعلنت شركة "جون لانغ هومز" الأمريكية المملوكة بالكامل لشركة "إعمار" الإماراتية إفلاسها مطلع ٢٠٠٩م، وتقدمت بطلب إلى الحكومة الأمريكية لحمايتها من الدائنين، بعد تراجع حاد في مبيعات الوحدات العقارية.

• أعلنت شركة "سيركت سيتي" إفلاسها في مطلع ٢٠٠٩م وشركة "سيركت سيتي" متخصصة ببيع المواد الألكترونية ولديها (٨٥٠) مجمع ضخم في كل أنحاء أمريكا ويبلغ حجم محلاتها مجتمعة أكبر من مساحة دولة صغيرة..

• البنك البريطاني "نوردرن روك" أول مصرف للتسليف العقاري في بريطانيا تؤممه الحكومة البريطانية في شباط ٢٠٠٨م.

• البنك البريطاني "اليناس آند لايسستر": أعلن في تموز ٢٠٠٨م أن بنك "سانتندر" الإسباني يشتره بقيمة (١,٣٣) مليار جنيه (١,٦٦ مليار يورو) فقط مع زيادة رأسماله بواقع مليار جنيه ما يعني إفلاس الأول.

• اشترى بنك "لويد تي أس بي" منافسه البريطاني "أتش بي أو أس"، رابع بنك في بريطانيا من حيث الرسطة في أيلول ٢٠٠٨م، كما تم تأمين البنك البريطاني "برادفورد أند بينغلي" وتصفيته في أيلول ٢٠٠٩م، وهو المؤسسة المالية البريطانية الرابعة التي تفقد استقلاليتها منذ بداية أزمة التسليف الدولية.

• أعلن البنك البريطاني "رويال بنك أوف سكوتلاند" الخميس عن تحقيق خسارة صافية بمبلغ (٣٤ مليار دولار) خلال عام ٢٠٠٨م، وهي أكبر خسارة في تاريخ البنوك والشركات البريطانية، كما أعلن البنك وهو ثاني أكبر البنوك البريطانية من حيث الحجم، إنه سيضع مبلغ (٤٦٢ مليار دولار) من الديون المعدومة والمشكوك في تحصيلها في صندوق خاص تضمنه الحكومة البريطانية، وحذر العاملين فيه من إمكانية الاستغناء عن عدد كبير

من الوظائف، وأوضح أنه سيقصص أنشطته التي تمتد إلى ٣٥ دولة، لتركز أساساً على السوق المحلي، وكان "رويال بنك أوف اسكتلاند" على وشك الانهيار خلال عام ٢٠٠٨م، واضطرت الحكومة البريطانية للتدخل لإنقاذه بشراء نحو ٧٠% من أسهمه.

• انهارت المجموعة المصرفية والتأمين البلجيكية الهولندية "فورتيس" في أيلول ٢٠٠٨م، حيث أعلن بنك "فورتيس" أن صافي خسائر فرعه بهولندا خلال عام ٢٠٠٨م بلغت (١٨,٩ مليار يورو أي ما يعادل ٢٤,٩٦ مليار دولار)، لكن السلطات في بلجيكا ولوكسمبورغ وهولندا قررت ضخ ما مجموعه (١١,٢ مليار يورو) لتمويل "فورتيس" مقابل حصص في رأسمال المؤسسة.

• في آيسلندا، أعلنت الحكومة في أيلول ٢٠٠٩م شراء (٧٥%) من رأسمال "غليتيير"، ثالث بنك في البلاد الذي يعاني من نقص السيولة، بقيمة (٦٠٠ مليون يورو).

• أفلت البنك الألماني الخاص "هيبو ريل إستيت" المتخصص في الشأن العقاري، من الإفلاس في أيلول ٢٠٠٨م بفضل فتح خط ائتمان بقيمة (٣٥ مليار يورو) بكفالة الدولة بصورة رئيسة.

• عانت شركات سيارات عالمية مختلفة وشهيرة جداً من تداعيات مالية كبيرة بسبب الأزمة اضطرتها إلى إعلان إفلاسها أو تأجيل ذلك لوقت قريب ومنها شركات "جنرال موتورز" و"كرايسلر" و"بونتياك" و"فورد" واضطرت الخزينة الأمريكية من دعم بعضها بتقديم مليارات الدولارات كقروض ميسرة لها مع منحها فرصة لوقت محدد كما حصل مع "جنرال موتورز" التي منحت حتى الأول من حزيران ٢٠٠٩م لاستكمال خطة لإعادة تنظيم نفسها أو إنها تقوم باستعدادات مكثفة ودؤوبة لإعلان الإفلاس ولكن هذا الإجراء أدى إلى نتائج

سلبية، حيث هبطت أسهم هذه الشركة بشكل كبير بسبب ذلك فتعقدت المشكلة أكثر، علماً إن "جنرال موتورز" سجلت خسائر قدرها (٣١ مليار دولار) عام ٢٠٠٨م وسرحت (٢١ ألف) موظف وخسرت (٦ مليارات) دولار خلال الربع الأول من عام ٢٠٠٩م، ورغم كل تلك الإجراءات الاحترازية أعلنت الشركة إفلاسها رسمياً في حزيران ٢٠٠٩م، كما أقرت أوروبا في مجال دعم صناعة السيارات قروضاً بقيمة (١,٢ مليار) دولار لدعم شركات صناعة السيارات المضطربة في أوروبا في ظل مخاوف من احتمالات إشهار إفلاس شركة "جنرال موتورز" بسبب عدم تحقيق تقدم في إعادة هيكلة الشركة المتعثرة.. وأما شركة "كرايسلر" الأمريكية لصناعة السيارات فقد أعلنت إفلاسها وقدمت الحكومة الأمريكية لها قرضاً بقيمة ثمان مليارات دولار هي المحاولة الأخيرة لإعادة هيكلتها، وقد توصلت "كرايسلر" وشركة "فيات" الإيطالية لصناعة السيارات إلى اتفاقية للاندماج بينهما بحيث تمتلك فيات (٢٠%) من أسهم "كرايسلر" ويمكن رفعها إلى (٣٥%) لاحقاً، وفي نفس السياق فإن شركة "فيات" الإيطالية الشهيرة لصناعة السيارات تركت في عام ٢٠٠٩م الباب مفتوحاً أمام إغلاق مصانع تابعة للشركة لظروف مالية قاسية تمر بها الشركة بسبب الأزمة المالية، وقال رئيس الشركة إنه لا يستبعد إمكان غلق مصانع في إيطاليا، ويعمل لدى شركة "فيات" (٧٨ ألف) شخص، وقد اضطرها تراجع المبيعات إلى تقليص رواتب الموظفين، أما شركة "تويوتا" اليابانية الشهيرة التي تعتبر أكبر منتج للسيارات في اليابان فقد أعلنت في آيار ٢٠٠٩م إنها سجلت أول خسارة سنوية في تاريخها حيث منيت في صافية بقيمة (٤,٤ مليارات) دولار..

- الشركات المفلسة في فرنسا خلال (١٢ شهراً) من إعلان الأزمة المالية العالمية (٥٣,٦٤٠ شركة) وهو أعلى مستوى في عشرة أعوام وأسرع وتيرة منذ عام ٢٠٠٢م.
- أعلنت حوالي (١,٠١٠) شركات يابانية إفلاسها قبل نهاية عام ٢٠٠٨م وقد اضطرت هذه الشركات للقيام بهذه الخطوة لأسباب عدة على رأسها تأثرها بالأزمة الاقتصادية.
- في نيسان عام ٢٠٠٩م أعلنت اثنتان من كبرى شركات صناعة الإلكترونيات في العالم "توشيبا" و"سوني أريكسون"، عن خفض الآلاف من قواهما العاملة بتأثير الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي أدت لانكماش حاد في سوق العمل بكافة أنحاء العالم.

نتائج الأزمة المالية

أما هذه التداعيات الكبيرة المتمثلة في أكبر عمليات الإفلاس والخسائر الهائلة لكبرى مؤسسات العالم الاقتصادي الرأسمالية فإن هناك كوارث مالية واقتصادية لا تantal مالكي هذه الشركات والمؤسسات فحسب وإنما قد طالمت وللأسف الجماهير الكادحة وحين نراجع لبعض ما حصل من آثارها فإننا نجد:

- قال الرئيس الأمريكي المنتخب أوباما في أول ظهور صحفي رسمي وفي أول خطاب أن لديه (١٠ ملايين) عاطل عن العمل، وهي تركت الأزمة لعام ٢٠٠٨م إضافة إلى ذلك فإن مليوني أمريكي فقدوا وظائفهم في أول ثلاثة أشهر من عام ٢٠٠٩م، وقد أظهرت بيانات حكومية أمريكية أن أرباب الأعمال الأمريكيين خفضوا (٦٦٣ ألف) وظيفة خلال شهر واحد هو شهر آذار ٢٠٠٩م فقط، كما أكد المدير العام لمؤسسة "إنتر ميديا" في أيار ٢٠٠٩م

أن هناك حالياً (٢٨ مليون) عاطل بالولايات المتحدة منهم (١٣،٢ مليون عاطل) رسمياً إضافة إلى (١٤،٦ مليوناً) لا يدخلون في حساب العاطلين "لأسباب سياسية" لكنهم عاطلون بالفعل، وفي ذلك دليل واضح على أن الأزمة ماضية بقوة بالتأثير على الاقتصاد الأمريكي والعالمي دون هوادة كمسرى النار في الهشيم..

• خلال مرحلة ما قبل انهيار المصارف الأمريكية، حذر المراقبون مراراً من أن الأسوأ من أزمة الائتمان لم يأت بعد، وبالفعل فقد ظهر ذلك مع تراجع حادة في بورصات العالم أدت إلى خسائر قياسية، أما المرحلة الحالية، فتفترض بحث الخسائر الحقيقية التي ستولدها الأزمة، وعلى رأسها ارتفاع معدلات البطالة فمن المتوقع أن تصل معدلات البطالة إلى (٢١٠ ملايين عاطل) من العمل على مستوى العالم خلال عام ٢٠٠٩م..

• حذر رئيس البنك الدولي في نيسان ٢٠٠٩م من تعرض أكثر من (٩٠ مليون) إنسان في العالم للفقر هذا العام بسبب الأزمة العالمية، وإن أكثر من ثلثهم بشرق أوروبا وآسيا الوسطى، متوقعاً أن يصل عدد الجياح إلى مليار جائع على مستوى العالم..

• في مطلع ٢٠٠٩م تشير الإحصائيات الرسمية أن في بريطانيا بلغ عدد العاطلين عن العمل في المملكة المتحدة (٢،٠٣ مليون) شخص، أي ما نسبته (٦،٥%)..

• قال مكتب الموازنة بالكونغرس الأمريكي إن عجز الموازنة وخلال العام الحالي ٢٠٠٩م سيشهد قفزة عالية وقد يرتفع على إثرها إلى ما بين (١،٦٧ تريليون و٨٥،١ تريليون دولار) وهو أعلى عجز في تاريخ الولايات المتحدة.. ما يعني ذلك المزيد من الضرائب على المواطنين والقصور في الخدمات بشكل عام وتوقف المشاريع التنموية..

• خسر العالم (٥٠ تريليون) دولار من قيمة أصوله المالية خلال عام ٢٠٠٨م، من بينها (٩،٦ تريليونات) دولار في آسيا وحدها بسبب الأزمة المالية العالمية، فيما سجلت اليابان صاحبة أكبر اقتصاد في القارة أول عجز في حسابها الجاري منذ ١٣ عاماً..

• توقع تقرير خليجي أن يبلغ العجز في الحسابات الجارية لدول مجلس التعاون الخليجي ثلاثين مليار دولار خلال العام الجاري، بعد أن كان الفائض أربعمئة مليار دولار في العام الماضي، مؤكداً أن تداعيات الأزمة المالية بدأت تظهر جلية في الفترة الماضية..

• التدفقات الرأسمالية الخاصة إلى الأسواق الناشئة والبلدان النامية تتناقص إلى درجة الاختفاء، ويقدر معهد التمويل الدولي أن هذه التدفقات تراجعت إلى (٤٦٧ مليار) دولار عام ٢٠٠٨م، أي نصف مستواها عام ٢٠٠٧م، وتشير التوقعات إلى أنها ستواصل الهبوط إلى (١٦٥ مليار) دولار عام ٢٠٠٩م..

• في ظل الأزمة المالية الراهنة، يتوقع خبراء انهيار قرابة (١٠٠ مؤسسة) مالية حتى نهاية العام الحالي، في حال استمرار تهوي المصارف الأمريكية على ذات الوتيرة الراهنة، وبسيطرة السلطات الفيدرالية المنظمة للقطاع المصرفي على مصرف "سيلفر فولس" بأوريغون بلغ عدد المصارف التي أعلنت إفلاسها خلال الأسابيع الستة الماضية ١٤ مصرفاً..

• أعربت منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة في مطلع عام ٢٠٠٩م عن مخاوفها إزاء التسارع في شطب الوظائف بالقطاع المالي، مشيرة إلى أن من شأن ذلك أن يؤثر بصورة غير مباشرة على الاقتصاد الأوسع في المراكز المالية مثل نيويورك ولندن..

وكما طالبت الأزمة عامة الناس فقد طالبت أيضاً أغنياء العالم وإنما هي من فعالهم فقد ذكرت مجلة "فوربس" أن (٣٠%) من أعضائها المليارديرات

قد فقدتهم، وتبخر مبلغ نحو تريليوني دولار من ثروات هؤلاء، بينما تقلص عدد المليارديرات بمقدار (٣٥٥) عضواً منهم بسبب فقدان ثرواتهم، بينما توفي (١٨) منهم، ومن أولئك الأثرياء الذين خسروا جزءاً كبيراً من ثرواتهم "بيل غيتس" الشريك المؤسس لمجموعة مايكروسوفت والذي حقق خسارة قدرها (١٨ مليار) دولار من ثروته بسبب انخفاض أسعار الأسهم عام ٢٠٠٨م، وكذلك "كارلوس سليم" الذي خسر (٢٥ مليار) دولار، أما "وارين بافيت" فقد خسر (٢٥ مليار) دولار، وغيرهم الكثير، وكشفت صحيفة "صنڊاي تايمز" عن خسائر أكبر عشرة أثرياء في بريطانيا، حيث بينت أن خسائر العشرة الكبار فقط تجاوزت (٢٣ مليار) جنيه إسترليني (حوالي أربعين مليار دولار) ..

علاجات تخديرية

أمام هذه التداعيات الشديدة التي تمثلت بالانهيار المروع لكبرى المؤسسات المالية والصناعية والتجارية في العالم حاولت الدول الكبيرة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية اتخاذ إجراءات لم تتعدّ ضخ السيولة بكميات هائلة، وهذا العلاج من وجهة نظري هو علاج تخديري لفترة قد تطول أو تقصر وتحدث بعدها الكارثة فعلى سبيل المثال وليس الحصر:

- أقر الكونغرس الأمريكي، بمجلسيه الشيوخ والنواب، خطة "تحفيز الاقتصاد" التي اقترحها الرئيس باراك أوباما بقيمة (٧٨٧ مليار) دولار في محاولة لإنعاش اقتصاد الولايات المتحدة الذي يعاني تراجعاً حاداً.

- توصل زعماء دول العشرين إلى اتفاق قيمته (١,١ ترليون) دولار لمعالجة آثار الأزمة الاقتصادية العالمية في قمتهم التي عقدها في نيسان ٢٠٠٩م في العاصمة البريطانية، كما تعهدت قمة العشرين بتنفيذ أكبر خطة تحفيز

للاقتصاد العالمي وضخ أكثر من (٥ تريليون) دولار لحل المشاكل الاقتصادية، كما قررت القيام بدعم التجارة العالمية لأنها إحدى أهم أسباب التطور الاقتصادي.

• كشفت وزارة المالية اليابانية عن خطط لإعداد موازنة تكميلية للعام المالي ٢٠٠٩م مع حزمة حوافز اقتصادية بأكثر من (١٠ تريليونات ين أي ما يعادل ١٠٠ مليار دولار) لانتشال الاقتصاد من حالة الركود التي يعاني منها، ثم صرح بنك اليابان بأنه سيقوم بتقديم منح مالية بقيمة تزيد على (١٠ مليارات) دولار أمريكي على شكل قروض إلى البنوك، على أمل دعم الأسواق الإقليمية وتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية.

• خصص البنك الدولي مبلغاً قدره (١٨ مليار) دولار خصص لمعالجة هذه الأزمة على الصعيد العالمي، منها (ملياراً و٢٠٠ مليون) دولار لمساعدة تلك البلدان الأشد تضرراً من ارتفاع أسعار المواد الغذائية في عام ٢٠٠٨م.

• أطلق الرئيس البرازيلي "لويس إيناسيو لولا داسيلفا" خطة لإنعاش قطاع العقارات بقيمة (١٥ مليار) دولار، تهدف إلى تحفيز قطاع التشييد في ظل تباطؤ الاقتصاد العالمي، ويؤمل أن تخفف الخطة من حدة العجز الهائل في عدد الوحدات السكنية بالبرازيل..

• اتفقت بلدان جنوب شرق آسيا بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية عقب اجتماعهم في تايلند في شباط ٢٠٠٩م، على الرفع من قيمة اعتمادات صندوق الطوارئ ليصبح (١٢٠ مليار) دولار لمعالجة الأزمة..

إن هذه الإجراءات تؤكد حقيقة دامغة في محورين، **المحور الأول:** أن هذه الإجراءات تمثل ضربة قاصمة للنظرية الاقتصادية الرأسمالية التي تأسست عليها العولمة ونظر وروج لها النظام الرأسمالي مراراً وتكراراً والتي تقوم على إعطاء صلاحيات غير محدودة لمؤسسات القطاع الخاص كي

تتصرف كما تشاء لتحقيق الكفاءة القصوى بأقل التكاليف، وتبين أن نظرية (دعه يعمل) كانت مجرد هراء وهباء.

أما المحور الثاني في القضية أنها تأتي في وقت الذروة للتربع الأمريكي الرأسمالي على العرش الدولي دون منازع والذي تؤكد بصورة جلية عقب أحداث أيلول ٢٠٠١م، وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الأزمة قد تمثل بداية النهاية للازدهار الاقتصادي الأمريكي الذي دام لسنوات طويلة مما قد يترتب عليه في الأمد الطويل أقول النجم الأمريكي عن السماء العالمية وفي كل الصعد الاقتصادية والسياسية والعسكرية..

إن ضخ الأموال بهذا الشكل سيؤدي بالتأكيد إلى زيادة التضخم وسيعزف المستهلكون عن شراء السلع فيحصل الكساد في السلع ثم يعقبها الركود الاقتصادي فتوقف الشركات والمؤسسات ويعود الحال إلى نقطة البداية ما يعني الدوران في حلقة مفرغة.. وهذه الخطة لن تكون ذات فاعلية في إنعاش النمو الاقتصادي المصاب بالخمول كما ستكون ظالمة من الناحية الاجتماعية لأن من شأنها أن تعود بالنفع على أكثر الطبقات ثراء في المجتمع الأمريكي.

المنظور الإسلامي للأزمة المالية

ترى الشريعة الإسلامية أن التعامل مع المال كوسيلة للحياة أمر لابد منه ولكن بشرط أن يراعي هذا النوع من التعامل مصالح الآخرين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا"^(١)، فوجود المال بيد الإنسان يدعو للغلبة ولكن حين يُعامل معه بالحق ويكون لصالح

(١) رواه البخاري/ كتاب الزكاة/ باب إنفاق المال في حقه.

الشعوب، وعلى ضوء ذلك يكون التعامل معه على أساسين، أولهما: اكتساب المال، وثانيهما: إنفاق المال، ولابد أن يكونا هذين الأساسين صحيحين وإلا فإن البناء الذي يكون أساسه هشاً فإن مصيره إلى زوال يقول تعالى: W M
g f e d c b a ` _ ^] \ [Z Y X
. ^(١) L r q p o n i k j i h

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فَيَمَّا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فَيَمَّا فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فَيَمَّا أَبْلَاهُ"^(٢). وفي كلا الحالتين من المفروض أن تكون الوسائل للاكتساب أو الإنفاق مشروعة، والمقصود بالمشروعة هي التي تتحدد بضوابط الشريعة الإسلامية وهي بطبيعة الحال تحقق مصالح الأشخاص أو المؤسسات لأن الشريعة الإسلامية أصلاً وجدت لتحقيق مصالح العباد وجاءت لحفظ ضروريات الحياة والتي منها مال الإنسان وحين نقول أن الإسلام هو الحل فإنه يتخذ من المنظومة الاقتصادية بمجملها من أجل حلها وليس تناول الجزئيات والنظر فيها وحلها حلاً جزئياً ووقتياً، فنجد أن الشريعة الإسلامية تطالب وبشدة مراعاة الجانب الإيماني وهو تطبيق ما أمر الله به وبعبكسه فإن النتائج ستكون وخيمة، وهذا ما حصل بالفعل فبحسابات منطقية بالإمكان أن تحدث أزمة وتخسر شركات ومؤسسات وقد تنبأ بالفعل بعض المختصين بهذا، ولكن لم يتوقعوا بهذا الشكل الكارثي فالأمر لا شك ويعلمه المختصون أن هناك قوة عظمى تدخلت لإحداث هذا العطب الهائل في العملية الاقتصادية العالمية، وحين نتكلم عن رؤوس الأموال في النظام الرأسمالي بشكل عام

(٢) سورة التوبة/ الآية (١٠٩).

(٣) رواه الترمذي برقم (٢٦٠٢).

وفي الاقتصاد الأمريكي بشكل خاص نجد أن رؤوس الأموال تتداول بين أشخاص أو شركات بينما لا يجد عامة الناس ما يؤمن لهم الحياة المحترمة الكريمة وهنا يشخص "ابن خلدون" رحمه الله العلة ويشير إلى أن نقص المال بعد كثرة يأتي من أسباب:

- ١ - تكثير الوظائف التي تكون في خدمة الملك وأمنه.
- ٢ - ترف الدولة وصرفها الأموال في أبواب لا تخدم الرعية.
- ٣ - تجارة السلطان وهي أعظم الآفات التي تذهب بركة مال الدولة، حيث تختل الجباية (للمحسوبة) وتنتزع مصادر الرزق من أيدي الرعية وهذه الأسباب واضحة جليلة في الأنظمة الرأسمالية.

كما ولا بد من الإشارة إن الاكتساب غير المشروع للأموال (أموال السحت) سواء كان على مستوى الحكومات أو المؤسسات أو الأفراد لها نفس التأثير في محق وزوال بركة الحياة بشكل عام والأموال بشكل خاص، يقول الله سبحانه وتعالى: M وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ^١وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ L ^(١).

فمن وجهة نظر إسلامية وجود نسبة وإن كانت قليلة غير مؤثرة في الحسابات المادية من المال الحرام كقيلة بتدمير وفناء كم هائل من رأس المال وكما يقول أحد العلماء (إن درهماً واحداً من الحرام يهلك ألف درهم من الحلال)، وهذا هو أحد أسباب الأزمة المالية الاقتصادية وبالتالي فإن آثار الأزمة لم تطل مسببها فقط وإن نال القسط الأكبر من ذلك بل طالت السواد الأعظم من الشعوب..

(١) سورة الأنفال / الآية (٢٥).

المحور الأول: اكتساب المال

فمن أمثلة طرق اكتساب الأموال في الأنظمة الرأسمالية السائدة في العالم اليوم:

الربا: فكل البنوك في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وبقية العالم بل وقسم كبير منها في العالم الإسلامي وللأسف قائمة على أساس التعامل الربوي (الفائدة) لمن يودع رؤوس أموال لديها وكذلك تمنح قروض ربوية للآخرين، وبهذا الوصف يكون الربا عندها بوجهين ما يعني أنها تمنح نسب ربوية لمن يودع أموال لديها وتقرض الآخرين مقابل نسب ربوية.. يقول تعالى: $M T U V W X [Z \setminus] \wedge L^{(1)}$ ، والمحق هو الإبطال والمحى، ومن الضروري أن يذكر في هذا الباب صندوق النقد الدولي المرتبط بالولايات المتحدة الأمريكية وسياساتها المالية والذي يقوم بمنح الكثير من الدول قروضاً مقابل فوائد تبقى متراكمة إلى ما لا نهاية، وسبب ذلك إن هذه الفوائد (الربا) غير ثابتة فهي تزداد كلما عجز المستفيد من القرض على التسديد وبالتالي يبقى يسدد فوائد متراكمة ومركبة لسنين طويلة، وهذا أحد أسباب النهي عن الربا في الإسلام الذي يرى أنه من أبشع وأخس التعاملات المادية يقول تعالى: $M U V W X Y Z \{ \} \sim$ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ۖ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۖ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾، ولو لم يكن الربا فيه من الأضرار الهائلة على الأفراد والأمم لما جعل الله المتعامل فيه في نطاق الحرب من الله..

(١) سورة البقرة/ الآية (٢٧٦).

(١) سورة البقرة/ الآيات (٢٧٨ - ٢٨١).

ولقد أعطت هذه الأزمة برهاناً ساطعاً على خطر الربا وما يترتب عليه من أضرار، وهو دليل واقعي رآه الجميع رأي العين، وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الربا وهو في مجتمع صغير وبسيط ولا يتعدى عدد سكانه الآلاف وليس فيه من الأموال إلا القليل وحجم التعاملات المالية والاقتصادية بكل أنواعها محدودة، فكيف حين يكون الحال والتداول به مع ملايين البشر وبرؤوس أموال ليس لها حصر وبمعاملات تجارية لا تعد ولا تحصى ..

ولعل ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره عن حقيقة الربا خير ما يذكر في هذا الباب فيقول رحمه الله:

أولاً: إن الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض، لأن من يبيع الدرهم بدرهمين يحصل له زيادة درهم من غير عوض ومال الإنسان متعلق بحاجته، وله حرمة عظيمة، كما في الحديث: "حرمة مال المؤمن كحرمة دمه"^(١)، فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.

ثانياً: إن الاعتماد على الربا يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب وذلك لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أو نسيئة، خفَّ عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات ولا شك أن هذه الحكمة مقبولة من الوجهة الاقتصادية..

ثالثاً: إنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت

(١) رواه الدارقطني في سننه برقم ٢٩٢٧.

حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع
المواساة والمعروف والإحسان..

ونضيف على ما قاله الفخر الرازي فإنه في كل الأحوال يكون أحد
الطرفين خاسراً ومغبوناً حقه، لأن النسبة الربوية المقررة لا تمثل حقيقة
الربح المتأتي من عملية استثمار هذا المال فلو كانت أقل كان صاحب المال
مغبوناً ومظلوماً ولو كانت أكثر من الاستحقاق كانت المؤسسة المالية هي
المغبونة.. بينما يسعى الإسلام إلى العدل المطلق وإعطاء كل ذي حق حقه
وهذا من المستحيل أن يتحقق في ظل النظام المالي الذي أسسه الربا..

تسخير ثروات الآخرين لصالح الدول الرأسمالية: ويتم ذلك عن طريق تكبيل
دول العالم باتفاقيات تجارية تمنعهم من بيع ثرواتهم ومنتجاتهم بالأسعار
والكميات التي تناسبهم، ومثال ذلك ما يحدث في منظمة (أوبك) للدول المنتجة
للنفط فيما يتعلق بأسعار وكميات النفط المصدر من قبل الدول المنتجة
الأعضاء في المنظمة، فحين هبط سعر البرميل الواحد للنفط أكثر من (١٠٠
دولار) في فترة قياسية فهذا يعني خسارة الدولة التي تصدر (٢ مليون) برميل
في اليوم ما مقداره (٢٠٠ مليون) دولار يومياً أي بحدود (٦٠ مليار) دولار
سنوياً (علماً أن الأسعار والكميات تتحكم فيها منظمة أوبك)، وكذلك اتفاقيات
منظمة التجارة العالمية التي من شأنها في العادة أن تحول رؤوس الأموال من
الدول المنتجة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وبطرق ملتوية
وبأساليب خبيثة تتعلق بالاستيراد والتصدير من حيث السماح لبعض المنتجات
والمواد الخام وعدم السماح لأخرى، ومهما تغيرت هذه الأساليب فهي سرقة،
يقول تعالى: $v u t s r q p o n m l k m$

L { z y x w ^(١)، فلا بد أن يعي العالم المتسلط أن سرقة أموال الشعوب إنما هي طريق الشيطان لأن فيها أذى البسطاء من الناس يقول تعالى: M الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ^(٢) ما يعني أن هذا الطريق نهايته الفقر ..

الأموال المكتسبة من نشر كل ما من شأنه إفساد الناس: ونشر ثقافة الإباحية بينهم، كالمواقع الإباحية من فضائيات ومواقع انترنت وكذلك مصانع الخمور والمخدرات المنتشرة في العالم وكذلك بمرتبة أقل مصانع إنتاج السجائر في العالم وهذا كله من باب الإفساد في الأرض، يقول الله تعالى: M ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٣) ..

الأموال المكتسبة من عمليات الخديعة والغش: ومن ذلك عقد صفقات بيع كبيرة جداً وبمبالغ هائلة الغرض منها استنزاف ثروات الشعوب من أجل عدم الاستفادة منها في مشاريع تعود بالنفع على تلك الشعوب، ومثال ذلك بيع أسلحة لدول معينة بعد أن تصنع الولايات المتحدة خصماً وهمياً لتلك الدول فتبيعها أسلحة ربما لن تستخدمها أبداً، وتشير مراكز الدراسات المتخصصة بأن أكبر صفقات أسلحة قيمتها عشرات المليارات من الدولارات أبرمتها دولتين خليجيتين، وكذلك خلق حالة حرب بين دولتين لترويج الأسلحة كما حصل في حرب العراق مع إيران .. وفي نفس الباب الأموال المستحصلة من عمليات غسيل الأموال، وهذه في حقيقتها أموال مسروقة أو من طرق غير

(١) سورة البقرة/ الآية (١٨٨).

(٢) سورة البقرة/ الآية (٢٦٨).

(٣) سورة الروم/ الآية (٤١).

مشروعة و يبلغ حجم الأموال المغسولة في العالم على مستوى العالم (٣ تريليون)^(١) دولار في العام..

الحصول على أموال نتيجة السرقات الخفية والعنيفة: من أموال الشعوب وبطريقة يتم فيها الإعلان عنها باعتبارها أعمالاً خيرية يكون في النتيجة غطاء لما صار يعرف (الفساد الإداري والمالي) الذي تسوق له الإدارة الأمريكية والدول التي تدور في فلكها من خلال مشاريعها المعلنة والمخفية لنشر الديمقراطية المزعومة، ومثال ذلك ما جرى في العراق فقد ابتلعت مئات المليارات (باعترا ف قيادات أمريكية) من أموال العراق أو من أموال الدول المانحة خلال فترة احتلال العراق تحت شعار (حملة إعمار العراق) وفي حقيقتها سرقة ثروات الشعب العراقي.. وقبلها في مرحلة الحصار الجائر على العراق حيث يقول "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية: "لقد أظهرت الفضيحة التي تم الكشف عنها في البرنامج الممول من قبل الأمم المتحدة (النفط مقابل الغذاء) والخاص بالعراق الحاجة الملحة لوضع قوانين صارمة فيما يتعلق بتضارب المصالح، وأهمية الانفتاح في عملية المناقصات، وكما يقول "راينود ليندرز" و"جستن الكساندر" في تقرير الفساد لعام ٢٠٠٥م، إن أغلب الأموال المتوقع إنفاقها في عمليتي البناء والشراء في العراق لم يتم إنفاقها بعد فإذا لم تتخذ خطوات سريعة سيصبح العراق عندئذ أكبر فضيحة فساد في التاريخ..

ولقد تسربت وثائق في السنة السادسة لاحتلال العراق عن حجم هذه السرقات فلو ضربنا مثلاً لحالة واحدة فتشير إلى فقدان (١٢٠ مليار) دولار من الأموال العراقية ولتوضيح الأمر أكثر من ناحية حجم هذه السرقات في

(١) التريليون يساوي ألف مليار دولار.

هذا الباب، فإن الموازنة السنوية العامة لبعض الدول بحدود ٥ مليارات دولار، فهذا يعني إن الأموال التي تم سرقتها في العراق تكفي لدولة من تلك الدول لمدة تزيد على ٢٠ سنة فقط!!.

المحور الثاني: محور الإنفاق

ولو أردنا أن نستعرض بعض محاور الإنفاق في السياسة الاقتصادية الرأسمالية التي تمثل الولايات المتحدة الأمريكية رأس الحربة فيها نستطيع أن نحدد بعضاً من هذه المحاور وهي:

الحروب: كشف الاقتصادي الأمريكي البارز الحائز على جائزة نوبل للسلام "جوزيف ستيجليتز"، في كتاب جديد أن تكلفة حرب العراق التي تدخل عامها السادس في ٢٠٠٨م، تضاعفت ثلاثة مرات عن الأعوام السابقة، لتصل إلى (١٢ مليار) دولار شهرياً في العام الحالي، وتوقع "ستيجليتز" و"ليندا بيلميرز" الكاتبة المساعدة أن حربا العراق وأفغانستان بالإضافة إلى تواجد عسكري طويل المدى في الدولتين تكلف الخزانة الأمريكية ما بين (١,٧ تريليون) دولار إلى (٢,٧ تريليون) دولار، أو أكثر بحلول عام ٢٠١٧م، وذلك في "أفضل الأحوال" وحال تطبيق سيناريوهات "واقعية ومعتدلة".

وقد تضيف الفائدة على قروض تمويل الحرب تلك وحدها مبلغ (٨١٦ مليار) دولار إلى التكلفة، لقد بدأ أصحاب الاقتصاد بحساب هذه التكاليف على مستوى اليوم والساعة والدقيقة وفي ذلك دلالة على ضخامة هذه الكلف، ولمزيد من المعلومات عن حجم الإنفاق العسكري الأمريكي تظهر لنا في الجدول الآتي:

السنة	الحرب على العراق ألف دولار / دقيقة	الحرب على الإرهاب ألف دولار / دقيقة	ميزانية الدفاع الأمريكي
٢٠٠٣م	٩٣	٥٤	٤٣٨
٢٠٠٤م	١١١	٧٤	٤٤٨
٢٠٠٥م	١٦٤	١٠٠	٥٠٧
٢٠٠٦م	١٨٨	١١٦	٥٣٦
٢٠٠٧م	٢٤٥	١٦٦	٦١١
٢٠٠٨م	٣٧١	١٩٥	٦٥٠

جدول يمثل حجم الإنفاق العسكري الأمريكي مجلة "الفور بوليسي" عن مكتب خدمات البحث بالكونغرس

يقول الله جل وعلا: O N M L K J I H G M

..^(١) L] \ [Z Y | W V U T S R Q

الإنفاق بسبب النتائج العكسية لنشر الفساد.. من السياسات المستهجنة من قبل القوى العالمية التي تحاول السيطرة على مقدرات الشعوب هي نشر الإباحية بين أفراد الشعوب بل وحتى شعوبها من أجل إشغالها والسيطرة عليها، وبالرغم من أن هذه الأمور لها تكاليفها الخاصة والتي لها ثقلها في المجال الاقتصادي إلا أن نتائجها تكون سلبية وتكاليفها أكبر بكثير فتشير الدراسات الطبية في هذا المجال أن متوسط تكلفة معالجة (وليس شفاء) شخص مصاب بالإيدز حتى يتوفى تبلغ (١٢٠ ألف) دولار.. وتشير الدراسات إلى أن عدد المصابين بالمرض حول العالم عام ٢٠٠٧م وصل إلى

^(١) سورة الأنفال/ الآية (٣٦).

(٣٣ مليون) شخص، من بينهم (٢،٧ مليون) من المصابين الجدد ووفاة مليونين.

الإنفاق الناتج عن إدمان الخمر والتدخين، فالمشاكل الاقتصادية والخسائر التي تعود على الدول بسبب تناول شعوبها الخمر كثيرة وكبيرة، فالعالم يخسر من جراء تناول الخمر بحدود (١٦٦ مليار) دولار سنوياً كما تقدرها منظمات الصحة العالمية.. كما وتشير المنظمة إلى أن ثلث أسرة المستشفيات في الدول الصناعية يشغلها مرضى الخمر، وتصرف دولة مثل بريطانيا (١٦٤ مليون) جنيه إسترليني سنوياً لعلاج مرضى الخمر، حيث يقع في المستشفيات العقلية والنفسية في إنجلترا ما يقرب من العشرين إلى الثلاثين ألف شخص بسبب الخمر، أما في مجال التدخين فهناك (٣٠٠ مليار و ٣٠٠ مليون) مدخن في العالم.. والتدخين له تكاليف باهضة فعلى سبيل المثال وحسب آخر الدراسات الحديثة يكلف التدخين الولايات المتحدة بحدود (٦ مليارات) دولار سنوياً، بينما يكلف المملكة الأردنية الهاشمية (٦٠٠ مليون) دولار من جراء الأمراض والمشاكل الصحية الناجمة عنه..

الهدر بشكل عام: تقول منظمة الشفافية الدولية: "يعتبر الفساد في المشاريع العامة الكبيرة الحجم عقبة كبيرة أمام التنمية المستدامة"، على حد قول السيد "بيتر ايجن" رئيس منظمة الشفافية الدولية، ويضيف "ايجن": "إن الفساد في عملية إبرام وتنفيذ العقود يعتبر كارثة كبيرة على الدول المتطورة والنامية على حد سواء"، ويضيف: "عندما تكون الرشوة كبيرة ويغلب الإنسان المال على القيم، تكون النتيجة إنشاءات رديئة الجودة وإدارة ضعيفة للبنى التحتية، إن الفساد مضيعة للمال، ونهب لموارد الدول، وتؤدي إلى قتل الأرواح في الكثير من الأحيان، ويقول ايجن: "يجب المحافظة على الأموال والمعونات المخصصة لمشاريع إعادة البناء في بعض الدول مثل العراق من خطر

الفساد"، ويضيف قائلاً: "يجب أن تكون الشفافية شعار الأول، وخصوصاً في هذا الوقت الذي تقوم فيه الدول المانحة بضخ مبالغ هائلة، ويظهر التقرير أيضاً الحاجة الملحة للحكومات والشركات الدولية من أجل ضمان الشفافية في عمليات الإنفاق العام من أجل القضاء على ظاهرة الرشوة على المستويين الداخلي والخارجي، لهذا نجد أن تقارير منظمة الشفافية الدولية تشير إلى نسب فساد وهدر مرتفع في الدول التي تعاني من ارتباط اقتصادها باقتصاد دول رأسمالية كالولايات المتحدة الأمريكية وذلك هو السر في أن العراق من أولى البلدان التي تمتاز بأعلى درجات الفساد في العالم.. بينما يحدث العكس في دول أخرى أشارت التقارير أنها من أفضل البلدان المصنفة كدول نظيفة ومنها الدنمارك والسويد ونيوزيلندا..

الحل الإسلامي

حين نتكلم عن الحل الإسلامي للأزمة المالية العالمية فإننا نتكلم عن منظومة اقتصادية متكاملة ومرتبطة بالحوادث، ولا نزع أن الحل يكمن في لمسة عصا، وإنما يقدم الاقتصاد الإسلامي الحلول وأنظمة العمل التي بالإمكان تطبيقها تدريجياً للوصول للحالة المثلى للبشرية في الجانب الاقتصادي، وهذا الموضوع لم يتناوله الإسلاميون فقط بل يرى غير الإسلاميين أن الحل بجعبة الإسلام، ففي افتتاحية كبرى المجلات الاقتصادية في فرنسا "تساليينجز" في ١١ أيلول ٢٠٠٨م كتب رئيس تحريرها "بوفيس فانسون" موضوعاً بعنوان (البابا أو القرآن) قال فيه: "أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلاً من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا، لأنه لو حاول القارئ على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن

من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود"، وفي نفس السياق قال "رولان لاسكين" رئيس تحرير صحيفة "لوجورنال دو فينانس" الفرنسية في الافتتاحية يوم ٢٥/٩/٢٠٠٨م بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لعلاج هذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة حيث قال: "إذا كان قادتنا حقاً يسعون إلى الحد من المضاربة المالية التي تسببت في الأزمة فلا شيء أكثر بساطة من تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية"، كما صدر كتاب للباحثة الإيطالية "لوريتا نابليون" بعنوان (اقتصاد ابن آوى) أوضحت أن "المصارف الإسلامية يمكن أن تصبح البديل المناسب للبنوك الغربية"، إن هؤلاء الغربيون يعترفون أن الإسلام منهج شامل كامل ومتكامل لكافة جوانب الحياة، دين وعبادات ومعاملات ودولة ويوازن بشكل ملفت للنظر بين المادية والروحانية، وأن في الإسلام نظاماً اقتصادياً فريداً معجزاً يتسم بخصائص إيمانية وأخلاقية وسلوكية لا توجد في أي نظام اقتصادي آخر كما أنه ينضبط بمجموعة من الأحكام والنظم والأسس مستخرجة من روح الشريعة الإسلامية وأنه صالح لكل زمان ومكان، وبمنظرة إسلامية للحلول الممكنة نتوصل إلى ما يأتي:

- إن إغراق الأسواق بالمال خطر فادح بل هو من علامات الساعة في المنظور الإسلامي ما يعني هو أحد أسباب الاضطراب الذي يحدث قبل قيام الساعة لذلك لا بد من تقليل الكتل المالية بشكل تدريجي والاعتماد على النقد المغطى بالذهب ومن الأفضل أن يتحول على الأقل الخزين النقدي الاستراتيجي إلى نقود ذهبية (دنانير ذهبية) وفي التجربة الماليزية مثال عملي على ذلك، لأن وجود كم هائل للأموال يولد جوانب سلبية في التعاملات

المالية، ومنها توسع غير مسيطر عليه للمضاربات في الأسواق المالية بما في ذلك تلك التي تجري عبر الانترنت على حساب المعاملات المالية الحقيقية، وكذلك فإن هذه المضاربات تؤدي إلى صفقات لا تقدم أي قيمة مضافة في الأسواق، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ - وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضُ"^(١)، والمال في الإسلام له وظيفة هي أن يكون في خدمة الإنسان كونه خليفة الله في أرضه فمن غير هذه الوظيفة فسيكون سبباً في فقدانه، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) للصحابي حكيم بن حزام رضي الله عنه: "يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى"^(٢)، ومن أساليب عدم إغراق الأسواق المالية برؤوس الأموال الهائلة إيقاف المشاريع غير الاستثمارية التي تحمل الميزانيات تخصيصات هائلة، ومثال ذلك الحملات العسكرية والحروب التي تؤدي في العادة إلى تراكم العجز في الميزان التجاري الأمر الذي يضعف الثقة بالاقتصاد الرأسمالي.. ولا بد من تشجيع الاستثمار الحقيقي بحيث يعمل على الحد من المضاربات المالية، وهنا لا بد من فرض قيود على أنواع التعاملات المالية ومنع المعاملات التي لا تتضمن استثماراً حقيقياً..

التخلص تدريجياً من كل أنواع التعاملات الربوية لأن الربا يمحق رؤوس الأموال والحل الإسلامي لذلك هو التخلص من المعاملات الربوية بكل

(١) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات.

(٢) رواه البخاري: كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين) من سورة النساء.

أشكالها ويلاحظ استعداد المصارف الغربية لذلك، وقد حصل بالفعل أن خفضت هذه النسبة بشكل كبير مثل ما قام به بنك استراليا المركزي والبنك الأوربي أخيراً من خفض هائل لسعر الفائدة وما تبعه من توافق جماعي بين البنوك المركزية لعدة بلدان في هذا المجال، هو اعتراف ضمني للمعالجة الصحيحة للمشكلة ما يعني إمكانية التوصل لإلغائها وجعل التعامل مع المودعين صحيحاً من خلال أعمال صناعية أو تجارية أو أي نوع آخر من الاستثمار الصحيح بما يضمن عدم الظلم للطرفين، وقد قدم الإسلام الحل البديل عن الربا بقوله تعالى: M 7 8 9 : ؛ = > ? @ A B

والقد L R Q P N M L K J I H G F E D C ^(١)، ولقد عالج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أول قاعدة اقتصادية إسلامية في الربا بقوله في حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (... فَلَيْسَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَهْلٌ مِنْ نَفْسِهِ أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رَبٍّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تَظْلَمُونَ غَيْرَ رَبِّ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ...) ^(٢).

وضع برنامج للتخلص من مصادر الأموال الحرام.. فالمال الحرام أساس هلاك البشرية يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالُ، أَمْ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ" ^(٣).

ومصادر المال الحرام أو ما يعرف بـ (السحت) كثيرة ومتنوعة يصف ابن عباس رضي الله عنه بعض منها بقوله: (السُّحْتُ الرِّشْوَةُ فِي الْحَكْمِ وَمَهْرُ الْبَغِيِّ وَثَمَنُ الْكَلْبِ وَثَمَنُ الْقِرْدِ وَثَمَنُ الْخَنْزِيرِ وَثَمَنُ الْخَمْرِ وَثَمَنُ الْمَيْتَةِ وَثَمَنُ

^(٢) سورة البقرة/ الآية (٢٧٥).

^(١) جزء من حديث رواه الترمذي برقم (٣٣٦٧).

^(٣) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب قوله تعالى (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي بَيْنَكُمْ مُمْسِكَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) آل عمران (١٣٠).

الدَّمِ وَعَسْبُ الْفَحْلِ وَأَجْرُ النَّاحَةِ وَأَجْرُ الْمُغْنِيَةِ وَأَجْرُ الْكَاهِنِ وَأَجْرُ السَّاحِرِ
وَأَجْرُ الْقَائِفِ وَتَمَنُّ جُلُودِ السَّبَاعِ وَتَمَنُّ جُلُودِ الْمَيْتَةِ فَإِذَا دُبِغَتْ فَلَا بَأْسَ بِهَا
وَأَجْرُ صُورِ التَّمَاثِيلِ وَهَدِيَّةُ الشَّفَاعَةِ وَجَعِيلَةُ الْغَزْوِ، والمال الحرام خبيث
والله تعالى لا يحب الخبيث، قال تعالى: s r q p o nmM

L | { z y x w | u t ^(١). فإذا انتشر فإن الله
سبحانه وتعالى سيذيق الناس عقوبات على ذلك يقول تعالى: M ظَهَرَ أَفْسَادُ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٢).. ويقول

تعالى: F E D C B A @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 M
X W V U T S R Q P O N M L K J I H G
L a ` _ ^] \ [Z Y ^(٣)، وقد ذكرنا أنواع الكسب

والإنفاق الحرام ونضيف لذلك غلق قاعات الروليت والقمار وخاصة في دول
العالم الإسلامي كمرحلة أولى، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم):
"إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَتَّصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةُ
السُّؤَالِ وَإِضَاعَةُ الْمَالِ" ^(٤)... والمال الحرام مال خبيث يقول فيه تعالى:

l k j i h g f e d c b a ` _ M
L r q p o | m ^(٥)..

^(٣) سورة المائدة/ الآية (١٠٠).

^(٤) سورة الروم/ الآية (٤١).

^(١) سورة الفجر/ الآيات (٦-١٤).

^(٢) رواه مسلم برقم (٤٥٧٨).

^(٣) سورة الأنفال/ الآية (٣٧).

خلق آلية لتعميم فكرة تطبيق أداء الزكاة على مستوى العالم، ذلك أن الزكاة تمنع تكديس الأموال في البنوك وتضخيم رؤوس الأموال لأن مالكيها سيضطرون لإقحامها في التعاملات التجارية حتى لا تأكلها الزكاة ونزول رؤوس الأموال للأسواق بمشاريع استثمارية ستكون حلاً لكثير من المشكلات من أبرزها تحويل السياسة الرأسمالية إلى سياسة العمل والإنتاج وتوسع قاعدة الخدمات للجماهير وتشغيل الأيدي العاملة وغير ذلك، كما أنها تحقق في الحد الأدنى إحساساً بالعدل فتطفئ شعور الفقراء بالظلم، كما أنها تمنع الجرائم المالية مثل السرقات والنهب والسطو، وما أشبه ذلك؛ لأن الفقراء يأتهم ما يسد شيئاً من حاجتهم و الزكاة مشتقة من زكا وتعنى النماء والطهارة والبركة وسميت الزكاة لأنها بحسب الدين الإسلامي تزيد في المال الذي أخرجت منه، وتقيه الآفات، كما قال ابن تيمية رحمه الله: (نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو ويظهر)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحميَ عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)^(١)، ولو لم يكن في الزكاة مصالح العباد لما ترتب على مانعها هذه العقوبات الكبيرة..

خلق نظام رقابي عالمي للتعاملات المالية يبدأ على مستوى العالم الإسلامي وليكن عن طريق منظمة المؤتمر الإسلامي أو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين أو أي منظمة أخرى يعينها أمر العالم الإسلامي يضعه أهل

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة.

الحل والعقد من المختصين بالاقتصاد الإسلامي ثم يتحول على مستوى العالم يراقب الدورة الاقتصادية على مستوى العالم ويصحح المسار، وهنا لابد من لفت النظر إلى أن كافة الفعاليات على مستوى العالم كالتربية والتعليم والزراعة وحقوق الإنسان... الخ لها دوائر معتمدة في منظمة الأمم المتحدة تراقب هذه النشاطات إلا الاقتصاد، وقد أرسى الشريعة الإسلامية قواعد الرقابة المالية الإسلامية والتي تطورت مع دول الخلافة المزدهرة، فأصبح لها أجهزة ودواوين تباشر رقابة فاعلة ومستمرة على مالية الدولة وحمايتها من العبث والضياع بجانب الرقابة الذاتية التي غرسها العقيدة الصادقة في نفوس المسلمين، وذلك في ظل اقتصاد إسلامي مميز عن النظم الاقتصادية المعاصرة، ورغم الفارق الكبير بين النظم الإدارية والمالية في الدولة الإسلامية وما آلت إليه هذه النظم الآن في الدولة الحديثة، إلا أن نظم الرقابة المالية الإسلامية التي باشرها ديوان المكاتب والمراجعات وديوان الأئمة ووالي المظالم والمحتسب وديوان الجهابذة وديوان الطراز بالإضافة إلى نظم الضبط الداخلي المتبعة في دواوين الأموال، أحكمت الرقابة على الموارد المالية ومصارفها، فقد كانت لهذه الرقابة المالية في الإسلام سمات مميزة تتطوي على قواعد وأسس ومبادئ عامة تصلح للتطبيق العملي في الدول الإسلامية الآن وتفوق في سائر جوانبها الرقابة المطبقة في عدد من الدول الحديثة.

العراق والأرقام القياسية في الفقر والنهب والأيتام والأرامل !

محمد جمال عرفة^(١)

إعتدنا أن نرى دولة تتفوق في الأرقام القياسية في التفوق.. الألعاب الرياضية مثلاً أو عدد العلماء والموهوبين أو المدن الصحية وهكذا، ولكننا لم نسمع أبداً عن دولة تتفوق في الأرقام القياسية في قتل علمائها العظام وأرقام قياسية في الفقر والنهب والفساد وأعداد القتلى والأيتام والأرامل أو انتشار الجريمة والمخدرات.. ولكن للأسف هذا هو حال العراق بعد ستة سنوات كاملة من الاحتلال!!

الأرقام القياسية بدأت بعلماء العراق خصوصاً في العلوم الذرية والفيزياء، الذين بدأت فرق صهيونية أمريكية محترفة اصطياًدهم في ظل الفوضى الأمنية واحداً تلو الآخر فقتل منهم المئات، وانتقل الاستهداف لكل الكفاءات العراقية من أطباء ومهندسين وخبراء من كل العلوم في خطوة لتفريغ العراق

(١) المحلل السياسي بشبكة إسلام أونلاين.

من علمائه وإعادته للعصور الوسطى عقاباً له على تفوقه الذي هدد الدولة الصهيونية.

ومع أنه لا توجد إحصائية لهذه العملية التي كشفت صحف فرنسية في أعقاب الغزو الأمريكي أن صهاينة يقومون بها بعدما أصبح الوجود الصهيوني رائجاً في العراق وخصوصاً في مدن الشمال الكردية، فقد قدرت دراسة إحصائية لمجزرة علماء وأطباء ومهندسي العراق، أعدها بالإنجليزية الطبيب الاستشاري العراقي "إسماعيل الجليلي"، وعُرضت في "المؤتمر الدولي حول اغتيال الأكاديميين العراقيين"، الذي عُقد في العاصمة الإسبانية "مدريد" لمناقشة هذه الكارثة أن عدد من قتل منهم لا يقل عن (٥٠٠ عالم)، وبأي حال من الأحوال فهو رقم قياسي لا مثيل له دفع من بقي منهم للهجرة، وحتى من تبقى من أطباء العراق مثلاً باتوا يسIRON في شوارع بغداد بأسلحتهم الخاصة وأصدرت لهم حكومة المالكي ترخيصاً بها!.

الكارثة الأكبر أو الأرقام القياسية التي تفوق كل ما لدى "جينييز" من موسوعة قياسية، كانت في تحقيق العراق أرقاماً قياسية في ظل الاحتلال فيما يخص أعداد الأرامل والأيتام والفقراء والفساد وتجارة المخدرات وغيرها؟. فالعراق حقق في هذه المجالات كلها أرقاماً قياسية في المآسي والمصائب والإجرام حيث الأيتام الآن بالملايين، والأرامل نتيجة الحروب والقتل الجماعي بالملايين أيضاً.

بعض الإحصائيات نقول إنهم - الأيتام - بلغوا خمسة ملايين، أما الأرامل فتقول هذه الإحصائيات الدولية والحقوقية أنهم قد بلغن مليوني أرملة، وأما السجناء في العراق فالיום يزيدون على (٣٠٠ ألف) أسير ومعتقل في سجون الحكومة وحدها عدا سجون الاحتلال، وهم موزعون على سجون معروفة

وسجون سرية تبلغ في مجملها أكثر من (١٠٠) سجن في جنوب ووسط وشمال العراق .

وإذا كانت الدنيا تقوم ولا تقعد والغرب يقلب الدنيا على حكومة الخرطوم مثلاً لأن سياستها في دارفور أدت لتهجير قرابة (٣٠٠) ألف مواطن على الأكثر، فالمهجرون في العراق يزدون عن المليون مهاجر من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، كما أن المهاجرين خارج العراق يبلغون نحو أربعة ملايين موزعين على بعض الدول العربية والدول الأجنبية.. ولكن لا أحد يتحرك!!.

الأحوال الاقتصادية ليست بدورها أفضل والنهب في قطاع واحد هو قطاع النفط علني - فهو هدف الاحتلال الأساسي - حيث (٨٨%) من نفط العراق للشركات الأمريكية وفقاً لقانون النفط الجديد و(١٢%) من النفط للعراقيين وتتولى توزيع عوائده الأمم المتحدة، أما العاطلين فحدث ولا حرج في بلاد الرافدين، فعدد العاطلين اليوم في العراق يبلغ ما بين (٥٠%) إلى (٦٠%) بناءً على تقارير أممية وإنسانية، ومع هذا تقول الحكومة أن عددهم أقل من عدد العاطلين في بلد مثل فرنسا!.

فمع أن إحصائية لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية تقول إن عدد العاطلين عن العمل يبلغ (١,٢) مليون فقط، فهي تقتخر بالقول أن هذه هي النسبة نفسها تقريباً أو أقل لعدد العاطلين عن العمل في فرنسا، ما يوحي بأن العراق في أحسن حال.

وتتناقض هذه الأرقام بشدة مع تقديرات الأمم المتحدة والوكالات الدولية التي تقدر عدد العاطلين عن العمل بنحو (٥٠%) من مجموع القادرين عن العمل في بلد يبلغ عدد سكانه (٢٨) مليون نسمة، تمّ تهجير (٢٠%) منهم من منازلهم أو إلى الخارج.

وكان وزير المالية العراقي (بيان جبر صولاغ) قد اعترف في بيان صدر في يوليو ٢٠٠٨م بأن التقديرات تشير إلى أن عدد العاطلين عن العمل في العراق حالياً يمثلون نصف عدد القادرين عليه، أي (٥٠%)، وعزز هذا تأكيد وكالات الأمم المتحدة أن هناك نحو (٨) ملايين إنسان في العراق يعيشون تحت خط الفقر.

سباق قتل العلماء والكفاءات

منذ الغزو الأمريكي للعراق، ولا يمرّ شهر دون أن تنتشر وسائل الإعلام العراقية خبراً على استحياء في ذيل صفحاتها عن مصرع عالم عراقي شهير من علماء العراق الخبراء في شؤون السلاح أو الذرة أو الكيمياء وغيرها في حادث إطلاق نار أو سيارة، أو داخل المعتقلات الأمريكية، ومن هم أحسن حالاً هربوا واختفوا في بلاد عربية مجاورة.

أحد هؤلاء الذين جرى الكشف عنهم بالصدفة هو عالم الذرة (طالب إبراهيم الظاهر) الذي اغتاله مسلحون مجهولون في مدينة بعقوبة في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٤م وهو في طريقه إلى مقر عمله أثناء عبور سيارته لأحد الجسور في مدينة بعقوبة مما أدى إلى مقتله وسقوط السيارة في نهر "خريسان".

وكذلك البروفسور في العلوم الكيميائية الدكتور (محمد منعم الأزميزلي) الذي كشفت صحيفة (الجاردان) البريطانية في تقرير صحفي مطول نشرته على صفحتها الأولى يوم ٢٤ حزيران/ مايو ٢٠٠٤م أنه توفي "في ظروف غامضة في المعتقل الأميركي في العراق" بعدما اعتقل من منزله بعد سقوط حكم الرئيس السابق صدام حسين حيث كان واحداً من قائمة (٢٠٠) مطلوباً القبض عليهم.

وهذا غير عشرات القصص الأخرى عن عشرات العلماء والأطباء العراقيين وأصحاب الخبرة والاختصاص في مختلف المجالات العلمية الذين تعرضوا لعمليات اغتيال وخطف من جهات مازالت مجهولة.

وقد شرح العالم العراقي الدكتور (مؤيد عزيز حسن) لصحيفة "المصري اليوم" في العدد الصادر يوم ٢١ ايلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م تفاصيل هذه الجرائم مع توضيح أنه حتى قبل عمليات الاغتيال وأيام الحصار، كان العلماء يعانون من انقطاع شبه تام عن العالم الخارجي، وهو ما أثر بصورة سلبية على البحث العلمي والعملية التعليمية بالكامل في العراق.

وترجع قصة استهداف علماء العراق إلى ما قبل وبعد احتلال بغداد، فعقب الغزو بعدة أشهر، كشف جنرال فرنسي متقاعد لقناة التلفزيون الفرنسية الخامسة عن وجود (١٥٠) من وحدات الكوماندوز الإسرائيلية داخل العراق لاغتيال (٥٠٠) من العلماء العراقيين ممن لهم صلة ببرامج التسليح العراقية الكيماوية والبيولوجية والنووية والصاروخية وردت أسماؤهم في قوائم مفتشي الأسلحة الدوليين، كما كشف علماء عراقيون - في نداء استغاثة عبر البريد الإلكتروني - أن قوات الغزو الأمريكية والبريطانية التي لديها كشف بأسماء وعناوين هؤلاء العلماء تدهم منازلهم وتحقق وتعنقل بعضهم وتطالبهم بتسليم ما لديهم من أبحاث وأوراق.

وقال الجنرال الفرنسي إن مخطط الاغتيال هذا تمّ وضعه من قبل مسؤولين أميركيين وإسرائيليين وأن لديه معلومات دقيقة بوجود الكوماندوز الإسرائيليين داخل العراق حالياً بهدف اغتيال العلماء العراقيين الذين كانوا نواة برامج التسليح الصاروخي والنووي والكيماوي التي أُرعب إسرائيل وعددهم - حسب الجنرال الفرنسي - قرابة (٣ آلاف و ٥٠٠ عالم) عراقي عالي المستوى من بينهم نخبة تتكون من (٥٠٠) عالم اشتغلوا في

تطوير مختلف الأسلحة وهذه النخبة هي المستهدفة من قبل العمليات الإسرائيلية بالدرجة الأولى.

وقد بلغت المأساة مداها عندما أطلق مسؤول عراقي في المنفى نداءً للعرب يدعوهم لتشغيل ما تبقى من العلماء العراقيين والكفاءات الذين طُردوا من عملهم أو مكثوا في منازلهم بلا عمل، ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولهم من الجلوس في المنزل!!.

النداء وجهه السفير علي جاروش، مدير إدارة الشؤون العربية بالجامعة العربية إلى الحكومة المصرية، وكل العرب في لقاء بعدد من البرلمانيين المصريين بلجنة الشؤون العربية بمجلس الشعب عام ٢٠٠٧م، وقال: "هناك كفاءات عراقية مثل أساتذة الجامعات تبحث عن عمل ولو بدون أجر حتى لا تتحجر عقولها من الجلوس في المنزل".

كلمات "جاروش" جاءت على خلفية اجتماع لجنة الشؤون العربية بالبرلمان المصري ١٥ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧م لبحث مشاكل العراقيين في مصر خاصة بعد تطبيق أجهزة الأمن المصرية لقرار يمنع دخول العراقيين للبلاد بدون تأشيرة دخول مسبقة من السفارات التابعة للخارجية المصرية في الخارج والاستعلام عن طالبي التأشيرة من الأجهزة المعنية بالدولة.

وقد فجرت كلمات "جاروش" حالة من الفوران بين النواب المصريين الذين أبدوا تعاطفهم مع النازحين العراقيين وطلب النائب مصطفى عوض الله - إخوان - من الحكومة المصرية أن تسمح بدخول أي عدد من العراقيين إلى البلاد في إطار رد الجميل لشعب العراق الذي وصفه بأنه تحمل تشغيل (٥ ملايين) مصري في فترة الثمانينات من القرن الماضي.

ودعا النائب لفتح الباب أمام العراقيين والسماح لهم بالعمل في ظل عدم تقديم الجامعة العربية أو المفوضية الدولية للاجئين أية مساعدات حتى الآن.

أرامل وأيتام الغزاة

المجال الاجتماعي هو اللاعب الأكثر ترشيحاً للفوز بجوائز الأرقام القياسية الأخرى في العراق.. فالفقر والفساد وأعداد الأطفال الأيتام والنساء الأرامل اللاتي يتسولن في الطرقات وغيرها كلها جوائز مضمونة!.

لم يكتف أعداء العراق بقيادته للحصول على المرتبة الاولى في الفساد عالمياً، ولا بحيازة بغداد لقب المدينة الأسوأ في العالم من حيث انعدام الأمن، ولا تفوق العراق على كل جيرانه في تجارة المخدرات في ظل الاحتلال ولا تبوءه المنصب الأول في الأمية بعد أن كان قد قضى عليها نهائياً قبل ثلاثين عاماً، وإنما سعوا لفوزه بالمراتب الأولى عالمياً في نسبة عدد الأرامل والأيتام؟!.

الاحتلال الأمريكي وما خلفه من فوضى وحروب خلف وراءه جيشاً جراراً من الأيتام الذين تجاوزوا الخمسة ملايين، وهناك خمسة منظمات دولية رشحت العراق لأن يكون الأول في معدل الأيتام والأرامل في العالم، ليدخل موسوعة غينيس لحيازته هذا المركز الأول بجدارة!.

دراسة أجرتها الأمم المتحدة كشفت عن أن عدد الأرامل في العراق قد بلغ (٣ ملايين) امرأة بعدما تخطى عدد ضحايا الغزو الأمريكي أكثر من مليون عراقي تشردت أسرهم وتشتت، ومن بينهم مليوني أرملة في السنوات القليلة الماضية، عدد كبير منهن يعلن عوائل كبيرة وينزلن إلى ممارسة أعمال تدر عليهن بعض المال البسيط تاركات أطفالهن دون رعاية في الشوارع والطرقات.

بغداد التي كانت تشتهر بالثراء والكفاية أصبح مشهداً مألوفاً اليوم أن ترى في شوارعها متسولات من الأرامل وأعداداً كبيرة من الأيتام تركوا مدارسهم

وباتوا يمدون أيديهم أو يمارسون أعمالاً شاقة من أجل إعالة عوائلهم بعد أن فقدوا معيّلها الوحيد في الحرب.

خمس منظمات دولية حذرت في تقارير لها من ارتفاع نسبة جرائم الطفولة والتشرد وتفشي الأمراض النفسية في المجتمع العراقي بسبب الغزو، ومنظمة اليونيسيف أكدت أن حصيلة العنف في العراق بلغت أكثر من (٥ ملايين و ٧٠٠ ألف) طفل يتيم حتى عام ٢٠٠٦م نتيجة اغتيال آبائهم، أو أنهم قُتلوا في حوادث التفجيرات والمداهمات المسلحة وسقوط القذائف والقتل الطائفي.

وهناك إحصاءات أخرى تقدر عدد هؤلاء الأطفال بما لا يقل عن (٧ ملايين) يتيم يعيشون في كنف أرامل وتكالي ومعظمهم يعاني سوء التغذية والأمراض المزمنة وقسم كبير منهم إما مقعدون أو عجرة، فيما تضم دور الأيتام عدداً قليلاً منهم، ويعيش قسم كبير بلا مأوى في الشوارع.

المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة أعلنت عن وجود أكثر من (٤ ملايين) لاجئ عراقي، أغلبيتهم الساحقة في سورية والأردن (ما يزيد على مليونين) وأن هناك نازحين داخل البلاد بما يقارب هذا الرقم، رغم ما قيل عن تحسّن الوضع الأمني في الشهرين الأخيرين، وهناك "عودة معاكسة" للاجئين العراقيين إلى الوطن.

عراقيون كتبوا يتساءلون: كم مؤتمر عقد من أجل إعمار العراق منذ ستة أعوام ؟ وكم من الأموال جمعت من الدول المانحة تحت عنوان (إعمار العراق)؟، وكم من تصريح وبيان أذيع لهذه الحملة؟ داعين - من باب السخرية - لمنح أبطال حملة الإعمار أرقاماً قياسية في خداع الناس!.

من ضمن الأرقام القياسية في عراق ما بعد الاحتلال أيضاً عدد المعتقلين، وعدد الجثث مجهولة الهوية وعدد نقاط التفتيش الشرطة ناهيك عن الفساد.

وقد اعترف رافع العيساوي نائب رئيس الوزراء العراقي الأسبوع الماضي أن "انتشار الفساد هو سبب نقص الخدمات الأساسية بصورة دائمة وعلى نحو يهدد الاستقرار" حسب قوله، وقال إن التحدي الأكبر ليس فقط الميزانية التي اضطرت الحكومة لتخفيضها بسبب انخفاض إيرادات النفط، ولكن هذا التحدي يتمثل في الفساد أيضاً.

لكن المسؤولين أقروا أن المشكلة تفاقت منذ السنوات الأولى التي شابتها الفوضى عقب الغزو الأميركي حين فقدت مليارات الدولارات من التمويل الأميركي لإعادة الإعمار وتعامل مسؤولون أميركيون وعراقيون مع الأمر دون رقابة تذكر.

وهناك تقرير طريف لمنظمة الشفافية الدولية يقول إن الصومال وميانمار كانا فقط أكثر فساداً من العراق في عام ٢٠٠٨م، ولكن ما عدا قبل وبعد ذلك فالعراق في المرتبة الأولى.. رقم قياسي أليس كذلك؟.

العراق - في عهدة الاحتلال وأعوانه من مرتزقة المحتل عاد للوراء عشرات إن لم يكن مئات السنين ودخل موسوعة جينيز وكل الموسوعات في الكوارث والفساد، وتدهور أحوال بلد كانت كل المؤشرات العالمية تضعه في مصاف دول المنطقة العربية ويعتبره الصهاينة مهدداً خطيراً لهم.. الآن أصبح أضعف بلد في العالم وأفسد بلد في العالم وبلا سيادة أو هوية ومتقطع الأوصال ويعاني الفقر والتدهور الاجتماعي والاقتصادي.

لقد دخل العراق - بحسب الشيخ حارث الضاري أمين عام هيئة علماء المسلمين - من حصيلة الواردات النفطية منذ الأيام الأولى للاحتلال وحتى

اليوم ما يزيد عن (٢٥٠ مليار) دولار (وقيل ٢٨٠ مليار) وبعض التقارير تقول (٣٥٠ مليار) دولار.. فأين ذهبت هذه المليارات التي لم يصل منها شيء إلى الشعب العراقي، ولم يعلم مصيرها الكثير منهم؟!.. كيف يكون هذا هو حالة دولة ثرية بهذه الأموال ولهذه الدرجة ومع هذا فهي مرشحة لدخول موسوعة جينيز للأرقام القياسية للفقر!..

جيش الاحتلال في العراق.. بين الفرار والانتحار

حسين الرشيد^(١)

قامت الحرب الأمريكية في العراق على مجموعة من الإغراءات التي قدمتها الإدارة الأمريكية السابقة برئاسة (جورج بوش) إلى جنود الاحتلال، وتمنياتهم بأن تكون الحرب في العراق مهمة سهلة، لا تستغرق سوى بضعة أسابيع، يعودون بعدها رافعين راية ما يسمونه (التحرير) بعد نشر الديمقراطية المزعومة في بلد طالما وصفوا النظام الحاكم فيه بالدكتاتورية والتسلط.

غير أنّ الحقيقة الناصعة في هذا المقام: أنّ الرياح جرت بما لم تشته إدارة البيت الأبيض حينما قررت إشعال الحرب واحتلال العراق منذ ستة أعوام.. فتلك التوقعات الوردية التي كان يتوقعها مسعّرو الحرب بأنّ العراقيين سوف يستقبلون جنود الاحتلال (التحرير) بالورود قد تبددت،

^(١) مدير تحرير مجلة حضارة.

وأصبحت من سخریات الماضي والحاضر!! ليقع هؤلاء الجنود الغاصبون في مستنقع العراق الذي سقطوا فيه طواعية وكرهاً، وهم لا يعرفون الخروج منه، إلا وهم على نعوش الموت، أو أنهم يتمنون به ولا يكادون يحصلون عليه؛ من شدة ما لحق بهم من أذى نتيجة مشاركتهم العدوانية التي يتحملون مسؤولياتها.. وصار الموت لا يكاد يفارق فكر وخیال أي جندي من أولئك الجنود.. أو أن تلحق به عاهة جسمية من بترٍ لليدين أو الرجلين، أو تلحق به حالة نفسية أو عصبية، بما هو أشد من الموت أحياناً.. بعد أن واجهت قوات الغزو الظالم مقاومة شرسة وحملة شعبية منظمة، بشكلٍ فاجأ المجتمع الدولي جميعاً، بما فيها قوات الاحتلال!! إذ أسقطت المقاومة الباسلة هيبة أمريكا، واستنزفت قواتها العسكرية، وأربكت اقتصادها وميزانيتها، وأنهت الحلم الإمبراطوري التوسعي الذي كان يراود الأمريكيين منذ أن انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بزعامة العالم.. وبالتالي فإنَّ جيش الاحتلال الأمريكي في العراق أمام أمرين لا ثالث لهما - اعتماداً على قراءة التاريخ والواقع - إما (عار) الهزيمة بما يلحقهم من خسران مادي ومعنوي، فضلاً عن الفضائح الأخلاقية التي يمارسها هذا الجيش، الذي يعتبره محللون من أفضع الجيوش؛ بسبب الفرق القذرة التي يضمها، وإما (الانتحار) الذي صار صفة ملازمة؛ للتخلص من مرارة الواقع الذي يعيشه الجندي الأمريكي في العراق، مع ما يلحق بعضهم من قتلٍ، ومرض، وإعاقة، وحالات نفسية متردية، حسب تقارير كثيرة، سيتضح بعضها بعد قليل.

هزيمة القوة التي لا تفقر..

حكاية (الهزيمة) الأمريكية في العراق صارت مسألة مفروغاً منها باعتراف بعض الأمريكيين أنفسهم، ولا داعي للمكابرة؛ لأنَّ أمر ذلك صار

متواتراً، ولا يستطيع أن ينكره لا عدو ولا صديق، بعد أن انطلقت شرارة المقاومة سريعة جداً، بل ربما هي الأسرع في تاريخ مقاومة الشعوب للاستعمار، بصورة شديدة الكفاءة والتميز، لترتفع وتيرتها يوماً بعد يوم؛ فتزداد أعداد القتلى من جيش الاحتلال، بما جعل من الصعب على قادة أمريكا وشعبها تحمل إلحاق الهزيمة بها^(١)، بل وإحساسهم بأنّ مسلسل الخسائر اليومي لأفراد قوات الاحتلال لا يمكن تحمله طويلاً.

وإذا أردنا القفز على فترة زمنية، من خلال تصورنا للبداية الحقيقية للهزيمة الأمريكية؛ فإنه لا بد من معرفة أنّ أمر الهزيمة بدأ بجدية كاملة، بعد انهزام الجمهوريين في انتخابات الكونجرس، ما دعا الرئيس الأمريكي (جورج بوش) إلى القول بأنّ كل الاحتمالات بالنسبة للعراق مفتوحة.

وما رافقه وتبعه من تصريحات بعض المسؤولين الأمريكيين، بأنّ الولايات المتحدة ليس لها أن تبقى في العراق إلى ما لا نهاية، في وقت تستنزف فيه الثروة المالية الأمريكية، بما أرقق اقتصاد هذا البلد.

ويعترف كثير من المحللين العسكريين بأنّ طليعة الهزيمة الأمريكية في العراق أُلقت بظلالها منذ الإطاحة بوزير الدفاع الأمريكي السابق ومسعر الحرب (دونالد رامسفيلد)؛ إذ لم تكن الإطاحة بهذا الرجل مجرد تغيير وزير، فالرجل أحد أهم رموز المشروع الإمبراطوري الأمريكي، وأحد أهم مهندسي ومنظري المحافظين الجدد، والمسؤول الأول عن الحرب في العراق أخلاقياً

(١) جدير بالذكر أنّ العسكرية الأمريكية استعملت كل ما في وسعها من أجل القضاء على المقاومة العراقية، دون جدوى، إذ استخدمت الطائرات والدبابات والصواريخ واقتحام المدن والتعذيب والإذلال والاعتقال، بما يزيد المقاومة قوة في كل مرة، وتحققت بذلك نتيجة حتمية عند قادة أمريكا مفادها: أنه لا يمكن القضاء على المقاومة، وبالتالي فلا بديل سوى إعلان عار الهزيمة.

وقانونياً، وهذا يعني اعترافاً بالفشل، وطريقة مهمة من طرق الهزيمة التي تلاحق الأمريكيين.

ومن المهم قراءة ما اقترن بهذه الهزيمة التي مُنيَ بها (رامسفيلد) من إصرار الديمقراطيين، الذين يشكلون غالبية مجلسي (النواب) و(الشيوخ) الأمريكيين، على ضرورة الانسحاب من العراق، بعد أن صارت ميزانية الحرب المستعرة في العراق - وأفغانستان - تحت سيطرتهم، بما أرهق جورج بوش في كثير من الأحيان.

ثم تعزز ذلك بقول الناخب الأمريكي بكل وضوح (لا لاستمرار الحرب في العراق) يوم أن انتخب المرشح الديمقراطي (باراك أوباما) الذي رفع شعار (أولوية الخروج من العراق)، وبالتالي فهو مضطر أمام أبناء الولايات المتحدة الأمريكية إلى تلبية رغبتهم ورغبته.. في وقتٍ توالى فيه التقارير الأمريكية التي أصدرتها (أجهزة الاستخبارات) على مدى السنتين الماضيتين، بأنَّ الفشل هو الطريق الأقرب للأمريكيين، وأنَّ إمكانية تحقيق النصر صارت أمنية لا يمكن نيلها.. لتعصد تلك التقارير تخوف الأمريكيين من التراجع الأمريكي، ففي استطلاع أجرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية منذ عام (٢٠٠٧م) إنَّ (٣٣%) من الذين استُطلعت آراؤهم متخوفون من التراجع الأمريكي في العراق، و(٣٥%) منهم واثقون، ويعتري القلق (٥٥%) منهم حول الوضع في العراق.. ويضيف الاستطلاع أنَّ ثقة الشارع الأمريكي بالحرب تراجعت من (٨٣%) عند بداية الحرب عام (٢٠٠٣م) إلى (٣٥%) فقط، كما تدهور الاعتداء الأمريكي بها من (٦٥%) إلى (٣٠%) حالياً (٢٠٠٧م)، وأشار الاستطلاع إلى أنَّ ٦١% من الشعب الأمريكي لم يرَ في غزو العراق أي جدوى؛ حيث تواصل تدهور معدل المؤيدين للحرب، ليصل

إلى (٣٧%) العام الماضي، وقف عند (٣٥%) فقط وفق استطلاع أخير^(١).. وبالتالي فإنَّ الانسحاب (عار الهزيمة) هو النتيجة الحتمية لتلك القوات الغازية.

وبعد صعود (باراك أوباما) إلى سدة حكم البيت الأبيض، جاء الإعلان الرسمي عن الهزيمة التي تجرّعها مع شدة مرارتها، في خطابه الذي ألقاه في بداية شهر آذار من عام (٢٠٠٩م) بسحب جنود الاحتلال من العراق سحباً جزئياً ينتهي في شهر آب من عام (٢٠١٠م)، على أن يتم سحب كافة جنود الاحتلال بنهاية عام (٢٠١١م)، واعترف بأنه سيبقى في العراق ما بين (٣٥ - ٥٠) ألف جندي أمريكي لمهمات غير قتالية، زاعماً أنها ستساعد العراقيين في إعادة الأعمار وتدريب قوات الشرطة والجيش!!، في وقت يعزّو فيه المراقبون أسباب هذا الإعلان إلى الخسائر المادية بالأرواح والمعدات كما أشرنا قبل قليل، بالتزامن مع الهزة العنيفة للاقتصاد الأمريكي الذي يشهد تهاوياً لم يشهد له مثيلاً منذ زمن طويل.. وقد صرح بعض المسؤولين الأوروبيين أن الأزمة المالية العالمية وتأثر أمريكا بها هو سبب قرار الرئيس الجديد بسحب جنوده من العراق!! في وقتٍ توقّع فيه (باراك أوباما) أن تكلفه الحرب في العراق وأفغانستان ستصل هذا العام إلى ما يقرب من (١٤٠) مليار دولار.

لقد تجرّع الرئيس الأمريكي الجديد مرارة الهزيمة في العراق التي وضعها في عنقه سلفه المهزوم (جورج بوش) واتخذ قراره الذي يعتقد جميع المعنيين بأنه جاء متأخراً كثيراً؛ بسبب السياسة الهوجاء التي كانت تمارسها الإدارة السابقة، والتي أودت بالعراق والعراقيين في مأساة كثيرة نتيجة ما

(١) ينظر: أرقام تحكي العالم، للأستاذ عمرو توفيق ص ٧٩ .

تعرضوا له من قتلٍ ما يزيد على مليون وربع المليون من أبنائه، واعتقال عشرات الألوف منهم في صور مذلة، وما تعرضوا له من تأجيج الفتنة الطائفية، وإذكاء روح العنصرية والقومية، وإذكاء المشاريع التقسيمية، وإهدار الثروة العراقية، وإشاعة مبدأ المحاصصة والفساد وهدر الأموال، وما شابه ذلك من أمور جعلت العراق الأسوأ بين بلدان العالم أمنياً وسياسياً.

وصار موضوع الانسحاب من العراق الحل الأمثل، الذي لا يمكن العدول عنه لإنقاذ جنود الغزو من المحرقة التي سقطوا فيها، وبات الجدل منصّباً على توقيت الانسحاب، وتهيئة الظروف المناسبة له، فإدارة الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) حرصت على أن يكون الانسحاب (منظماً) بحيث لا تهدر معه الكرامة الأمريكية، ولطالما كرر (بوش) ونائبه (ديك تشيني) عبارتهما الشهيرة "نريد خروجاً مشرفاً من العراق"، وفي الوقت ذاته يجب أن يضمن الانسحاب عندهم الحد الأدنى من العملية السياسية في العراق، فيما يصير الديمقراطيون والرئيس الحالي (باراك أوباما) على الانسحاب المبكر وفق جدول زمني لخطة الانسحاب؛ مدركين أن كل شهر يمر يكلفهم خسائر كبيرة بأرواح جنود الغزو هناك، فضلاً عن التكلفة المادية التي أرهقت أمريكا، وأربكت اقتصادها المتهاوي؛ فعلى حد إفادة الكونجرس الأمريكي فإنّ الكلفة الإجمالية لما يسمى الحرب على الإرهاب (الغزو) قد تصل إلى (١٤) تريليون دولار بحلول عام (٢٠١٧م).

والآن وقد تأكد موضوع (هزيمة جيش الاحتلال الأمريكي)، فما الذي تعنيه لقادة أمريكا؟ وكيف يمكن تفسيره بالواقع الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية، في ظل ما تتعرض له من مكاييد ومخططات مشبوهة ومؤامرات؟ إنّ الهزيمة في العراق لها تداعيات استراتيجية كبرى على مستوى خطورة الصعود الذي تنتظره بعض الدول الهادفة لنشر مشروعها من ناحية، وعلى

مستوى التداعيات بالنسبة لدول المنطقة، وأيضاً على مستوى إحساس الشعوب بالقدرة على مواجهة العدوان الأمريكي، وعدم قدرة آلة الحرب العسكرية على إخضاع الشعوب، الأمر الذي سيقصص قدرة الولايات المتحدة الأمريكية على فرض إرادتها بسهولة على الآخرين.. فضلاً عن رفع الروح المعنوية لقوى الممانعة - بما فيها قوى المقاومة المسلحة - للمشروع الأمريكي.. ثم إنَّ الهزيمة في العراق تعني أيضاً فشل المشروع الإمبراطوري الأمريكي، الذي كان يخطط للقفز على بعض الدول المجاورة وغير المجاورة للعراق، بل إخضاع المنطقة بالكامل للنفوذ، المتمثل باليمين الأمريكي (المحافظين الجدد).

بالتالي فإنَّ هناك تعويلاً أوروبياً، ومراهنة غربية على النصر الأمريكي في العراق، حتى صارت خسارة أمريكا في العراق خسارة لكل شعوب أوروبا، قال رئيس الوزراء البريطاني السابق (توني بليز) : ((إنَّ هزيمة أمريكا في العراق، هزيمة للغرب كله)) وقال (رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة): ((إنَّ قيمة انتصار أمريكا على المقاومة العراقية يساوي أو يزيد على الانتصار في الحرب العالمية)) وقال (هنري كسنجر) قبل سنين: ((إنَّ خسارة أمريكا في العراق معناها خسارة الغرب لكل ما حققه في الخمسة قرون الماضية)).

عار الفرار ..

من الأمور التي لحقت بجنود الاحتلال هو (فرارهم من خدمتهم الإلزامية) التي أجبروا على أدائها في جحيم العراق، بسبب ما لاقوه - وما يلاقونه - من مقاومة شرسة، حتى بلغت معدلات فرار الجنود الأمريكيين من الخدمة أعلى معدل لها منذ عام (١٩٨٠م) وبلغت الزيادة في عددهم حوالي (٨٠%) وذلك منذ بدء غزو العراق في (نيسان/ مارس) عام (٢٠٠٣م)، ورغم أنَّ

العدد ما زال أقل مما كان عليه خلال الحرب الفيتنامية، إلا أنه أخذ يشهد زيادة كبيرة في السنوات الأربع الماضية، عندما حقق قفزة بلغت نحو (٤٢%) في العام الماضي، ووفقاً للجيش الأمريكي فإن تسعة جنود من بين كل ألف جندي فروا من الخدمة عام (٢٠٠٧م)، ليرتفع عدد الجنود الفارين من الخدمة إلى (٤٦٩٨) جندياً، مقارنة بنحو (٧) من كل ألف فروا في العام السابق، والذين بلغ عددهم (٣٣٠١) جندياً عام (٢٠٠٦م)^(١).

وكشفت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أن عدد الجنود الذين فروا من الجيش الأمريكي، رفضاً للمشاركة في حرب أمريكا على العراق وأفغانستان في عام (٢٠٠٦م) بلغ (٣١٩٦) جندياً، ويزيد هذا الرقم من الجنود الفارين من الجيش الأمريكي عن العدد الذي تم تسجيله في العام الذي سبقه (٢٠٠٥م) بواقع (٨٥٣) جندياً.

وقد كشفت مجلة (دير شبيجل) أن أكثر من (٢٥) ألف جندي أمريكي هربوا من الخدمة العسكرية منذ بداية الحرب في العراق ولغاية منتصف العام الماضي.. وقد قال أول جندي أمريكي يهرب من العراق ويطلب اللجوء السياسي في ألمانيا: إن قرار لجوئه إلى ألمانيا جاء بسبب عدم رغبته في مساعدة بلاده على قتل الأبرياء!!.

أما ما يخص الجيش البريطاني - الذي يعد ثاني أكبر الجيوش المشاركة في احتلال العراق بواقع (٧١٠٠) جندي - فقد كشفت وزارة الدفاع البريطانية منذ عام (٢٠٠٦م) عن ارتفاع وتيرة فرار الجنود البريطانيين من الخدمة في الجيش بعد احتلال العراق منذ عام (٢٠٠٣م)، وأكدت الوزارة بأن عدد هؤلاء الجنود البريطانيين الذين هربوا أو تغيبوا عن الخدمة دون عذر وصل

(١) من تقرير نشرته شبكة (سي أن أن) الأمريكية عام ٢٠٠٧م.

إلى (١١ ألف جندي)، وأوضحت الوزارة أنّ عدد الجنود الذين فروا هذا العام وحده (٢٠٠٦م) بلغ (٢٨٣) جندياً، بينما بلغ عدد الفارين العام الذي سبقه (٢٠٠٥م) حوالي (٢٧٩) جندياً، في حين وصل عددهم خلال العام الذي سبقه (٢٠٠٤م) ما يقرب من (١٥٧) جندياً.

إنّ ظاهرة فرار جنود الاحتلال - بمختلف تشكيلاتهم - يؤكد حقائق لا بد من التطرق إليها والكشف عنها، فهي في حقيقتها تعكس مدى الضغط الذي تتعرض له قوات الاحتلال، نتيجة المقاومة الشرسة والمنظمة التي يلاقونها بوتيرة متتالية دون انقطاع منذ بداية الغزو ولحد هذه اللحظة، فضلاً عن حقيقة التفكك الرهيب الذي تعيشه تشكيلات تلك الجيوش الغازية بعد أن صحت ضمائر بعض هؤلاء الجنود في مواجهة التحدي الذي يواجهه تلك الجيوش، بعد غياب العامل الوجداني الذي جاءوا من أجله بحجة تحرير العراقيين من الظلم والاستعباد، بعد أن تكشف لهم زيف الادعاءات والإغراءات التي مني بها أولئك الجنود.

انتحار الجنود ..

تشير مجموعة كبيرة من التقارير المختلفة إلى تنامي حالة الانتحار، التي بدت تقض مضاجع مسؤولي إدارة البيت الأبيض - السياسيين منهم والعسكريين على حد سواء - وزاد اهتمامهم بها، وهذه التقارير هي توضيح مناسب لهذه الحالة الخطيرة التي يتعرض لها جنود الاحتلال، بعد أن أوصلهم إدراكهم بأنّ الموت أكثر راحة لهم بكثير من العيش في حياة مليئة بالذل والهوان، بعد أن عجزوا عن تحقيق المهمة التي طالما كان يحلم بتحقيقها سيد البيت الأبيض السابق (جورج بوش) بعد أن قال مراراً أن القوات الأمريكية لن تغادر ما لم تحقق مهمتها في العراق، وهي مهمة مجهولة لا يعلم أحد أي

شيء عنها، بما فيهم المشتركون في العملية السياسية الحالية، ضمن المشروع الأمريكي بعد الاحتلال!!..

وقد أكدت دراسة أصدرها معهد الصحة النفسية في (ولاية ميرلاند)، وهو أعلى جهة حكومية بالولايات المتحدة في مجال الصحة النفسية: أنَّ عدد جنود الولايات المتحدة الذين انتحروا بعد عودتهم من العراق يمكن أن يفوق عدد الجنود الذين قتلوا هناك منذ احتلاله بحسب الأرقام الأمريكية المعلنة التي يشكك المتابعون كثيراً بصحتها.

واستند المعهد في استنتاجه إلى جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع الأمريكية (البنтажون)، إلا أن الناطقة باسم الوزارة (سينثيا سميث) رفضت نفي النتيجة أو تأكيدها، لكنها قالت: إن المسؤولين في (البنтажون) ينظرون إلى حوادث انتحار الجنود الأمريكيين العائدين من العراق باهتمام كبير!! وقالت الدراسة التي أشرف عليها مدير المعهد توماس أنسيل: إنَّ البحث امتد لشهور، وتعاونت فيه جهات حكومية متعددة، منها وزارة الدفاع.

وكانت قضية انتحار (العائدين من العراق) قد شغلت أجهزة الإعلام الأمريكية لبعض الوقت إلا أنها لم تخضع من قبل لدراسة إحصائية من جهة لها مصداقية.. وسبق أن أصدر (معهد راند) دراسة قال فيها إن (٢٠%) من الجنود الأمريكيين الذين شاركوا في معارك بالعراق وأفغانستان يعانون من اضطرابات نفسية شديدة، غير أن دراسة (راند) لم تلج إلى مجال الربط بين وقائع الانتحار وهذه الاضطرابات، ولم تقدم مسحاً إحصائياً لتلك الوقائع.

وتؤكد التقارير أن عام (٢٠٠٣م) شهد ما يقرب من (٧٩) حالة انتحار بين جنود الاحتلال الأمريكي، منهم (٢٦) جندياً ضمن القوات القتالية، بنسبة تتجاوز (١٢،٤) حالة بين كل مائة ألف جندي.

وسُجِّل ما يقرب من (١٤١) حالة انتحار خلال الفترة ما بين (٢٠٠٢م) و(٢٠٠٥م).

ودلت أرقام الجيش على أن أكثر من ألفي جندي حاولوا الانتحار خلال عام (٢٠٠٦م) وبلغ عدد الجنود الذين انتحروا بالفعل (١٠٢) جندياً خلال ذلك العام.

وقد نقلت (سي أن أن) أنَّ دراسة عسكرية لوزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) خلصت إلى أنَّ معدل انتحار أفراد القوات الأمريكية ارتفع خلال عام (٢٠٠٧م) إلى أعلى مستوى له منذ أكثر من عشرين عاماً.. وبحسب تقارير صادرة عن جيش الاحتلال الأمريكي، فإنَّ عدد حالات الانتحار بين الجنود الأمريكيين خلال عام (٢٠٠٧م) بلغ (١١٥) حالة، مقارنةً بـ(١٠٢) حالة في عام (٢٠٠٦م) الذي كان هو الآخر يعدّ الأعلى خلال العشرين عاماً الأخيرة.. ويقرّ البنتاغون بأنَّ السنوات الخمس الأخيرة التي شهدت عمليات عسكرية واسعة في العراق وأفغانستان قد سجلت ارتفاعاً غير مسبوق في حالات انتحار الجنود الذين ما زالوا في الخدمة، فيما أشارت الدراسة نفسها إلى أنَّ أكثر من حائتين من بين كل خمس حالات انتحار لجنود عادوا للتو إلى وطنهم من أماكن القتال التي يتوزعون عليها في الخارج (العراق وأفغانستان).

غير أنَّ حصيلة عام (٢٠٠٨م) بشكل عام كانت الأعلى منذ بدء عمليات الإحصاء قبل ثمانية وعشرين عاماً؛ إذ سجل انتحار (١٣٣) جندياً، والذي كان بدوره الرقم الأعلى منذ بدء الاحتلال بإحصاء عدد المنتحرين في جيشه.. وأشارت التقارير أنه في شهر كانون الثاني من عام (٢٠٠٩م) زاد عدد الجنود الذين انتحروا على عدد زملائهم الذين قتلوا بستة أضعاف، وحتى ضمن القوات البحرية "المارينز"، وبينت الإحصاءات أن عدد المنتحرين من

الجنود قد زاد عام (٢٠٠٨م) ليصل إلى (٣٣)، مقارنة بـ(٢٥) منتحراً عام (٢٠٠٧م) حتى أنها تجاوزت جميع الأرقام التاريخية.. وهذا ما دفع قاعدة "فورت كامبل العسكرية الأمريكية" إلى إغلاق أبوابها، بعد توالي حوادث الانتحار بين جنودها.. حتى وصلت نسبة حالات الانتحار المؤكدة إلى (٢٠,٢%) من كل مائة ألف حالة.

وتفيد إحصائيات الجيش الأمريكي أنَّ (٣٠%) من عمليات الانتحار قام بها جنود لدى إرسالهم في مهمات، وأنَّ ثلاثة أرباع هؤلاء الجنود كانوا يقومون بأولى عملياتهم.. كما تشير الإحصاءات إلى انتحار جندي من كل ثلاثة أي بنسبة (٣٥%) لدى عودته من مهمة استغرقت عموماً أكثر من سنة؛ إذ عمد الجيش إلى وضع برامج وقائية، واتخاذ تدابير للتعرف إلى الجنود الذين يعانون من مشاكل نفسية.

فقد أقدم (٢٤) جندياً من سلاح البر الأمريكي على الانتحار في العراق، و(٣٩) بعد عودتهم من الحرب، وذلك ابتداءً من مطلع عام (٢٠٠٨م) وحتى شهر آب من العام نفسه.

وأوضحت بعض الدراسات: أنَّ عمليات الانتحار مرتبطة بشكل كبير بعمليات الطلاق، أو الانفصال، أو بسبب الصعوبات المالية، أو لأسباب أخرى.

ومما يذكر أنَّ جندياً تلقى بريداً من زوجته تقول له فيه (أريد الطلاق)، ثم انتحر.

وهناك عامل آخر في هذه العمليات وهو الإرهاق الذي يعانيه بعض الجنود لدى عودتهم والذي قد يؤدي إلى تشويش علاقاتهم الشخصية.. وعلى سبيل المثال: بين الجنود الـ(١٠٢) الذين انتحروا في عام (٢٠٠٦م) هناك

(٧٢) جندياً لم يكونوا في الخارج و (٢٧) كانوا في العراق وثلاثة في أفغانستان.

ومعظم الجنود الذين انتحروا هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين (١٨) و (٢٤) عاماً، ولكنّ الخبراء بدأوا يتحدثون عن ارتفاع عمليات الانتحار لدى الأكبر سناً وفي صفوف النساء، حيث انتحرت (١١) امرأة في (٢٠٠٦م) من اللاتي يخدمن في صفوف الجيش الأمريكي.

ولعل ملخص هذا الموضوع ما ذكره نائب رئيس أركان الجيش الجنرال (بيتر شياريللي) الذي ربط حالة ارتفاع عدد المنتحرين من الجنود الأمريكيين بطول المدة، والوتيرة المتزايدة للمهام التي تعقد العلاقات بين الجنود وعائلاتهم.. ورجحت مصادر طبية أن يكون للأمر علاقة بأشهر الشتاء الباردة والقاسية، وتزايد المهام المرهقة، والإكثار من الأدوية المضادة للاكتئاب.

وقد نبهت كبيرة أخصائيي علم النفس لدى قوات الاحتياط الأمريكية (العقيد كاثي بلاتوني) إلى أنّ الكثير من الأدوية المضادة للاكتئاب التي يتناولها الجنود تترك آثاراً جانبية، تغذي فكرة الانتحار لديهم، وخاصة أولئك الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٨ - ٢٤ عاماً.

حالة جنود الاحتلال ..

لا يعدو أنّ يلقي الجندي الأمريكي نصيبه الحتمي في العراق، فما بين قتله، أو عيشه برعب وخوف دائم بما يجعل الموت وسيلة راحة من الحياة، وما بين إصابته بحالة نفسية، أو إعاقه دائمة في جسده، من بتر اليدين أو الرجلين أو أحدهما، أو تشوه خلقي، وما شابه ذلك.

هناك تقارير ودراسات توضح الحالة الطبية والنفسية التي يعيشها جنود الاحتلال، سواء في ساحة المعركة في العراق، أو بعد إعاقتهم ونقلهم إلى بعض المستشفيات خارج العراق، أو بعد انتهاء مدة خدمتهم وعودتهم إلى وطنهم.

ووفقاً لما أظهرته الإحصائيات؛ فإنَّ عدد حالات الإصابة بأحد الأمراض النفسية أو العقلية بين الجنود الذين خدموا في العراق أو أفغانستان زاد بنسبة (٥٨%) خلال عام واحد، ففقرَ العدد من (٦٣,٧٦٧) ألف مريض بنهاية شهر حزيران عام (٢٠٠٦م) إلى (١٠٠,٥٨٠) ألف مريض بنفس الشهر من عام (٢٠٠٧م).. بينما زادت حالات الإصابة بمرض نفسي واحد فقط يُعرف بـ"اضطراب ما بعد الصدمة" وهو نوع من الاضطرابات العصبية، بنسبة (٧٠%) خلال نفس الفترة المتقدمة؛ ليصل بذلك عدد المصابين بهذا المرض إلى ما يقرب من (٥٠) ألفاً، وهو رقم يزيد كثيراً عن رقم الـ(٣٠) ألفاً، الذين تعترف بهم وزارة الدفاع رسمياً كمصابين في معارك أفغانستان والعراق، وهو ما يعني أن الكثير من المرضى الذين يصابون بأمراض نفسية نتيجة القتال، يتم حسابهم ضمن أعداد المصابين.

ومن نافلة القول معرفة أنَّ مرض (اضطراب ما بعد الصدمة) الذي يعرف بأنه (اضطراب نفسي خاص يتبع تعرض الشخص لحدث مؤلم جداً "صدمة" ويتخطى حدود التجربة الإنسانية المألوفة) لم يكن موجوداً في قاموس الطب النفسي، غير أنه بدأ تدريجياً في الظهور عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حيث اكتشفت بعض الأعراض النفسية على الجنود في ميادين الحرب، ولكن هذا تم تعميمه على ما يحدث عقب الكوارث كالزلازل

والفيضانات والصدمات الكبيرة في الحياة والتي تشمل مجموعات كبيرة من الناس^(١).

وفي إحصائية نشرت منتصف عام (٢٠٠٨م) بينت ارتفاع نسبة حالات الإصابة باضطرابات ما بعد الصدمة بين الجنود الأمريكيين الذين خدموا في أفغانستان والعراق بنسبة (٤٦,٤%) في العام (٢٠٠٧م)؛ ليلغ العدد الإجمالي لحالات الإصابة حوالي (٤٠) ألف حالة في سنوات الاحتلال الخمس الماضية.

وبحسب إحصاءات أصدرها الجيش الأمريكي؛ فإنَّ عدد الحالات التي شُخصت على أنها "اضطرابات نتيجة التعرض لصدمات" ارتفع حتى نشر التقرير من (٩,٥٤٩) حالة في عام (٢٠٠٦م) إلى (١٣,٩٨١) حالة عام (٢٠٠٧م)؛ وذلك في ظل زيادة فترة خدمة الجندي في العراق من سنة واحدة إلى (١٥) شهراً، وإرسال المزيد من القوات لمجابهة المقاومة الساخنة بالعراق وأفغانستان؛ ليصل عدد المصابين الإجمالي إلى (٣٩,٣٦٦) حالة في المدة من أول كانون الثاني (٢٠٠٣م) إلى آخر كانون الأول (٢٠٠٧م).. وأفادت الإحصائية: أنَّ المصابين يشكلون تفصيلاً (٢٨,٣٦٥) حالة بين أفراد الجيش، و(٥,٦٤١) حالة بين مشاة البحرية، و(٢,٨٨٤) بين أفراد البحرية، و(٢,٤٧٦) بين القوات الجوية^(٢).

وعلق الجراح في جيش الاحتلال الأمريكي الجنرال الطبيب (إريك شوميكر) على تلك الأرقام بالقول: إن (المسؤولين لا يملكون أرقاماً وبيانات يمكن الاعتماد عليها حول عدد الجنود الذين يعانون من خلل نفسي أو توتر

(١) ينظر: صحيفة الوقت البحرينية العدد (١٧٢) الجمعة ١٧/رجب/١٤٢٧ هـ ، ١١/آب/٢٠٠٦م.

(٢) من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٥/٢٠٠٨م .

بعد العودة من الحرب أو عدد الجنود الذين سعوا إلى الحصول على علاج لأعراض هذا الخلل بعد العودة من العراق أو أفغانستان).

وأضاف إن (ارتفاع عدد الجنود المصابين بهذا النوع من الخلل النفسي في السنوات الأخيرة يعود إلى زيادة الوعي وتتبع مثل هذه الحالات في الجيش فضلاً عن تعرض المزيد من القوات لعمليات قتالية).

واعتبر أن (تلك الأرقام لا تعكس المعدل الحقيقي نظراً لأن عدداً من المصابين بتلك الأعراض لا يسعون إلى العلاج أو أن بعضاً من المصابين هم من المدنيين العاملين مع الجيش).

ووفقاً لأرقام وزارة الدفاع (البننتاجون) فإن قوات جيش الاحتلال ومشاة البحرية شهدت ارتفاعاً كبيراً في عدد الحالات المصابة بخلل نفسي وتوتر بسبب الحرب حيث بلغ ذلك العدد في قوات جيش الاحتلال (٢٣,٣٦٥) فيما بلغ في قوات المارينز (٥,٦٤١) جندياً.

بل إن مؤسسة (راند كوربوريشن) أوضحت في دراسة أعدتها بأن ما لا يقل عن (٣٠٠) ألف جندي أمريكي من أصل مليون وستمئة ألف جندي يعانون من اضطرابات نفسية منذ العام (٢٠٠١م).

ويوجد لدى جيش الاحتلال في العراق أربع عيادات، يعمل فيها أطباء نفسانيون وأخصائيون في علم النفس، إلى جانب مرشدين اجتماعيين وممرضين، ويمكن بقاء جنود الاحتلال فيها؛ لمجرد تبادل الحديث، أو المعالجة، أو للاستراحة فقط.

ولعل أكبر تلك العيادات تلك التي في (معسكر ليبرتي) الذي يعد من أكبر القواعد العسكرية الأمريكية في العالم، ويقع قرب مطار بغداد، ويتمركز فيه ما لا يقل عن خمسين ألف جندي أمريكي.

وتخصص لجنود الاحتلال الأمريكي عيادة لمعالجة (الإجهاد الناجم عن المعارك)؛ إذ يتم فيها استقبال الجنود من قبل طبيبٍ نفسي يقوم بتشخيص العلة ووصف العلاج المناسب لها، فضلاً عن ذلك يتلقى المريض في تلك العيادة بعض الإرشادات والتوجيهات النفسية التي تلقى عليه أو تكتب له على جدران العيادة، ولعل من أهمها مخاطبة الجنود بالقول (لا تترك أبداً زميلاً يقاتل وحده، اصغِ إليه؛ فليست كل الجروح مرئية، ومنع الانتحار من مسؤولياتك، يجب جلب المساعدة لرفيقك)!!.

ومع كل ذلك؛ فإن ثمة انتقادات لا تتقطع عن إهمال المسؤولين والأطباء الأمريكيين للجنود الذين يتعرضون لإصابات خلال المعارك التي يشاركون فيها.. ويتمثل ذلك الإهمال بحالات متعددة أهمها ما يأتي:

١ - **الإهمال الصحي:** وكانت فضيحة هذا الإهمال لجنود الاحتلال بعد تعرضهم للإصابات وعدم الاكتراث بحالتهم الصحية، قد تفجرت في الولايات المتحدة بعدما كشفت صحيفة (واشنطن بوست) عن المشكلات التي يعاني منها الجنود في مستشفى (ولتر ريد) والتي تعد أكبر مستشفى عسكري أمريكي إذ قالت: إن الجنود يستكملون علاجهم هناك في مبنى متداعٍ يعج بالفئران والغبار والصراصير.. وأكدت أن (البيروقراطية) في هذه المستشفى تعيق تقديم المساعدات لجنود مصابين بإصابات بالغة^(١).

٢ - **الإهمال الاجتماعي:** بسبب عدم إدراج جملة كبيرة من جنود الاحتلال ضمن قوائم المصابين، وقد فجرت صحيفة (يو أس أي توداي) الأمريكية فضيحة جديدة لوزارة الدفاع (البنتاغون) حيث كشفت عن وجود ما لا يقل عن (٢٠) ألف جندي شاركوا في القتال بالعراق وأفغانستان، إلا أنهم غير

(١) من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٢/٢٠٠٨م.

مدرجين على قوائم الجيش كمصابين، في حين أنهم يعانون من إصابات في المخ نتيجة المهام القتالية.

وفي جزئية أخرى، تقول إحدى الدراسات أيضاً: إنّ جنود أمريكا العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية، قد تؤدي بحياة المصاب أو تربكها على أقل تقدير.. وقد أظهرت دراسة جديدة نشرتها مجلة (ويب ميدكال نيوز) الأميركية أنّ مجموعة كبيرة من الجنود الأميركيين القدامى العائدين من العراق يعانون من أمراض رئوية.

وكشفت الدراسة أن هؤلاء الجنود يعانون من أحد أنواع الأمراض الرئوية الذي يصيب القصيبات الهوائية في الرئة، لافتة إلى أن التهاب القصيبات ينتج عن أسباب عدة منها استنشاق السموم، أو الالتهابات الجرثومية، أو مرض الروماتيزم.

وأوضح الباحثون الذين أجروا الدراسة: أن الفحوصات الوظيفية للرئة والفحوصات الشعاعية التي أجريت على (٥٦) جندياً من الذين بدت عليهم أعراض المرض الرئوي لم تشر إلى وجود أية علامات مرضية، لكن تحليل أنسجة الرئة (Biopsy) أظهر فيما بعد تعرض نحو (٣٠) منهم لالتهاب القصيبات الرئوية، وأن معظمهم شخّصت حالاتهم على وجود إصابة بالمرض بسبب تعرضهم لفترات طويلة إلى غاز ثاني أكسيد الكبريت الذي نتج عن اندلاع حريق في منجم للكبريت قرب إحدى مناطق محافظة الموصل شمال العراق.

وأوضحت وزارة الدفاع الأميركية أن الدلائل تشير إلى أن جماعات مسلحة كانت وراء اندلاع هذا الحريق الذي يؤكد المختصون أنه الأكبر من نوعه على الإطلاق.

وأكدت الفحوصات التي قام بها الجيش الأميركي لنماذج من الهواء في المنطقة حصول التلوث بغاز ثاني أوكسيد الكبريت بنسب ذات سمية واضحة. وإذا اتضح ما تقدم؛ فإنّ من المؤكد أن الحالة النفسية المزرية التي يصاب بها المعتدون على البلدان المنكوبة لا تحصر إصابتها بالجنود المحتلين، بل تلاحق حتى السياسيين المتواجدين هناك، نتيجة الضغوط والخوف والقلق الذي يرافقهم ولا يكاد ينفك عن أحد منهم، وقد أوضحت دراسة بأن (٤٠%) من دبلوماسيّ أمريكا يعانون أمراضاً نفسية، خاصة في العراق وأفغانستان^(١).

أما ما يتعلق بجراحة الجنود وبتر الأطراف بسبب الإصابات التي يتعرضون لها في ساحة الحرب نتيجة المواجهات المستمرة في العراق؛ فقد كشفت صحيفة (الأوبزرفر) البريطانية أنّ معدلات عمليات بتر الأطراف التي أجراها الجراحون العسكريون للجنود الأمريكيين في العراق، قد ازدادت بمعدل الضعف، مقارنة بالمستويات التي سُجلت في الحروب السابقة، وأشارت الصحيفة إلى أنّ (٦%) من المصابين من الجنود الأمريكيين هناك يحتاجون إلى عمليات بتر، مقارنة بـ (٣%) في مناطق الصراع الأخرى.

ويؤكد جراح تقويم الأعضاء في المستشفى العسكري التي تعالج جنود الاحتلال الأمريكي وبعض القوات الأمنية الحكومية المتعاونة معها في الموصل (الكولونيل وين موسلي) أنّ الإصابات الخطرة التي تتطلب البتر وتركيب أطراف اصطناعية تصل إلى (٨٠%) من الإصابات^(٢).

أما جنود بريطانيا، فهم أيضاً يعيشون أياماً مأساوية في العراق، وقد أكدت صحف بريطانية أن جنود الاحتلال البريطاني العائدين من العراق

(١) ينظر: أرقام تحكي العالم ص ٨٥.

(٢) ينظر: الحوار المتمدن العدد (١٩٩٢) بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٣٠ م.

وأفغانستان يعانون من مستويات غير مسبقة من مشاكل الصحة العقلية، إضافة إلى إهمالهم وتجاهلهم ونسيانهم من قبل الحكومة البريطانية.. وقالت صحيفة (الأندبندنت أون صنداي): إنَّ حوالي (٢١) ألفاً من الجنود البريطانيين - من الذين أدوا الخدمة في العراق أو جنود الاحتياط - قد مستهم أمراض نفسية من قبيل القلق والاكتئاب، وإنَّ الأرقام الرسمية تشير إلى (٢٠) عسكرياً بريطانياً أقدموا على قتل أنفسهم منذ غزو العراق في مارس عام (٢٠٠٣م)، فيما يعيش أكثر من ألف جندي سابق مشردين بلا مأوى^(١).

(١) من تقرير نشرته مفكرة الإسلام بتاريخ ٢٨/٢/٢٠٠٨م.